جعفر

أيُّها الصدّيق

كمال السيد

رواية

دار النبلاء



كمال السيد

جعفر
أيُّها الصدّيق

رواية

دار النبلاء
طباعة - نشر - توزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار النبلاء

طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب.: ١١/٨٦٠١ - هاتف: ٠٣/٨١٤٢٩٤ خليوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الزهراء

فاطمة

و هي تقدم الى العالم ..

" احد عشر كوكباً "

ثلاثة لا يصلح العالم بدونها...

الأمن.

والعدل.

والخصب.

جعفر الصادق عليه السلام

في البدء

إنّها المرة الاولى ان اقدم مخطوطة عمل الى صديق قبل تقديمها الى الطبع وقد دفعني الى ذلك هاجسان؛ خشيتي من ان هذا الاثر لن يلقى اهتماماً من القرّاء، فقد اكتنف الغموض كثيراً من جوانبه؛ اضافة الى محاولتي في اختبار الرواية لدى اقرب المقرّبين الى نفسي والذي أبثّه ـ عندما تسنح فرص اللقاء ـ همومي وما يموج في صدري.

وهكذا وجدت نفسي اقدّم المخطوطة اليه، وبالطبع لم اعرف بعد ذلك ماذا حصل، فقد غاب عني اسابيع ثم فاجأني ومعه لفافة اوراق، قدّمها صامتاً ومضى كعادته في الغروب عندما يبدو حزيناً دونما سبب واضح.

قلّبت الصفحات واستغرقت في القراءة فاذا بي اجده يغوص في عمق الرواية ليستخرج منها الغموض كما يستخرج الغوّاص لآلئه من قاع المحيط، ووجدت في تلك الاوراق المتناثرة دراسة ربّما فاقت في اهميتها الرواية، ذلك انها رسمت بوضوح معالم تاريخية عجزت الرواية عن تصويرها.

وعندما التقيته ابديت له حماسي في نشر ما كتبه فقابل ذلك بفتور واصرّ اصراراً عجيباً في الّا اكتب اسمه ابداً. ثم تساهل قليلاً فوافق على ان ارمز لاسمه فقط، وها أنذا اقدّم بكل اعتزاز هذه الرواية داعياً القرّاء الكرام الى مطالعة ما كتبه « ع . م » لهم من وراء حجاب.

كمال السيّد

كانت المياه تتدافع ببطء

بدا النهر من شرفة القصر ثعباناً يتلوّىٰ بكسل.

الصمت يهيمن فوق المكان ما خلا طنين

ذبابة لا تفتأ تجثم فوق أنف «النمرود»

كان يطردها المرّة بعد الأُخرىٰ ولكن... دون جدوى

التفت إلىٰ رجل من «آل محمّد» وقال متأففاً:

ـ لِمَ خلق الله الذباب؟

أجاب الرجل وكان قد ذرّف على الستين:

ـ ليذلّ به الجبابرة.

فبهت الذي كفر؛

وهيمن الصمت مرّة أُخرىٰ.. ما خلا طنين ذبابة كانت تجثم فوق أنف «النمرود» المرّة بعد الأُخرىٰ.

1

أمواج السراب تتلاطم في الأُفق البعيد؛ وقد بدت بيوت المـدينة قوارب صغيرة تبدو وتختفي كطيوف باهتة.

كان يمشي علىٰ مهل غير مكترث بشواظ الشمس وهـي تـلفح الأشياء باللهب؛ وجسمه يتصبّب عرقاً غـزيراً تحت وطأة الظـهيرة العظمىٰ، والمياه المـالحة تـفرّ مـن مسـامات جسـد مـعذّب بـالحرّ والصوف. غير ان «ابن المكندر» لم يكـن ليـعبأ بكـلّ ذلك وكـانت تعتريه نشوة تستغرق كيانه كلّه، ما تزال روحه تطوف في عوالم من نور، ونفسه تهيم في تلال من ضوء سكرىٰ بخمرة سماوية عجيبة؛ إنّه لم يشعر بالسعادة كما يتشرّبها الآن، منذ ترك الدّنيا لأهلها ولاذ بعالم شفّاف؛ تحسّر علىٰ أيامه الخالية يوم كان منهمكاً في العمل والكدّ في عالم يموج بالفتن، بالثورات المشتعلة كحرائق مجنونة. امّـا الآن فـإنّه يعيش سعيداً، يشعر بأن روحه تسبح بين النجوم، تطوف في عوالم من نور.

كان «ابن المكندر» مستغرقاً في أحلامه عندما وقعت عيناه على منظر مثير؛ تمتم مبهوتاً:

ـ أجل.. أجل انّه بعينه أبو جعفر؛ الرجل الذي بقر العلم.

ولكن ماذا يفعل في هذه الظهيرة المحرقة؟!

انّه عائد من بستان له في هذه النواحي.. ولكن أليس من الأفضل أن يخلد وهو في هذه السنّ إلى العبادة ويدع الدّنيا.. وهو الآن من الموت قاب قوسين أو أدنىٰ؟!

اشتعلت في أعماقه فورة من غضب صوفي، وحثّ الخطى إلى حيث وقف أبو جعفر، عند ساقية صغيرة. كان الرجل القرشي يتصبّب عرقاً غزيراً وهو يواجه شمس تتدفّق لهباً.

همس ابن المكندر بصوت مسموع:

ـ والله لأعظنّه.

توقف «ابن المكندر» عند ضفاف الساقية وقد بدت في تلك الظهيرة تتلوّىٰ تحت وطأة الشمس الغاضبة، هتف رجل غارق في الصوف:

ـ أصلحك الله! شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة علىٰ مثل هذه الحالة في طلب الدُّنيا!! ألا تخشىٰ أن يجيئك الموت وأنت علىٰ هذه الحالة؟

أجاب الذي بقر العلم:

ـ والله لو جاءني الموت على هذا الحال؛ جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله أكف بها نفسي عنك وعن النّاس، وانّما أخاف الموت إذا جاءني وأنا على معصية.

جفّف ابن المكندر جبينه وقد تصفّد عرقاً مـن الحـرّ والخـجل.. أدرك في تلك اللحظة شيئاً غفل عنه زمناً مليّاً.. العمل عبادة.. طاعة لله . العمل طريق الحرّية والخلاص من الجِنّة والنّاس.

رفع ابن المكندر رأسه وكان قد أطرق مليّاً:

ـ رحمك الله أبا جعفر أردت أن أعِظك فوعظتني.

وانطلق رجل غارق في الصوف فيما راح الرجل الذي بـقر العـلم يبقر بطن الأرض ويعلّم الإنسان أن العمل محراب عبادة لا استغراق في الدّنيا؛ هكذا قال جدّه من قبل.. ما تزال كلماته في القـلوب. وقـد مضى قرن وأطلّ قرن جديد والتاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك..

توفي عامر بن واثلة وكان آخر من رأى النّبيّ وسمع كلماته، وتوفّي عمر بن عبد العزيز مسموماً لأنّه غصن يـتطهّر في شـجرة مـلعونة طلعها كأنّه رؤوس الشياطين.

2

باتت المدينة تلك الليلة تترقّب؛ فلقد استوى «هشام» علىٰ عرش دمشق؛ وقد وصل خاله «المخزومي» والياً جديداً عليها وعلى أُمّ القرى؛ والمهمّة معروفة «ثارات قديمة».

«الأحول» لن ينسىٰ كلمات قالها «الفرزدق» ماتزال تصفعه تمرّغ كبرياءه في الوحل.

دخل «زيد» بطوله الفارع وقد بدا وجهه المضيء مشوباً بحزن عميق؛ كقمر لفّته غيمة من رماد؛ كان «يحيىٰ» يدرك ما يموج في أعماق أبيه من هموم يعجز «رضوى» عن حملها.

ألقىٰ «زيد» بنفسه فوق البساط وتساند إلى الجدار. فتح المصحف الذي لا يكاد يفارقه، وتأمّل أوّل آية، راحت الكلمات تنساب من بين شفتيه وفي شرايينه كنهرٍ هادئ:

ـ «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض» التفت إلى ابنه:

ـ انّما نزلت فينا وفيمن كان قبلنا ليُحيي الله هذه الأرض...

• أردف بحزن:

ـ مَن أحبَّ الحياة ذلّ.. يا بُني لوددت أنّي أُحرقت بالنار ثمّ أُحرقت وان الله أصلح لهذه الأُمّة أمرها.

تساءل يحيىٰ وقد اكتشف طريق أبيه:

ـ متىٰ الرحيل؟

ـ غداً أو بعد غدٍ.. إنّ هشاماً لن يكفّ عنّي ولا عن غيري من بني عمومتك.. سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تحويلاً.

تداعت صور قديمة كانت تومض وتنطفئ كبروق سماوية، كان أبو سفيان يعذّب المسلمين في رمضاء مكّة ويقود الجيوش لاحتلال المدينة، ويفري كبد حمزة بحقد، وجاء ابنه معاوية ليسرق منبر النبيّ (صلّى الله عليه وآله) في وضح النّهار ثمّ ينزّ عليه يزيد فيعيث في الأرض الفساد، ويمزّق صدر الحسين ويهتك ألف عذراء ويحرق الكعبة.

وهاهو «الأحول» يقتفي خطى الأجداد؛ ولكل زمن ذريعة. كان أبو سفيان يتميّز غيظاً؛ يعضّ على نواجذه لأنّ محمّداً يسبّ الآلهة... وهي التي تحرس قوافل قريش! وجاء معاوية رافعاً قميصاً لعثمان، وكان يزيد يريد الناس عبيداً فانبرى الحسين وقد أعلنها صرخة: لا، وصبغ بدمائه الأرض.

ولمّا جاء هشام قلّب عينه الحولاء باحثاً عن غريم قديم فوقعت علىٰ زيد لأنّ أُمّه من بلاد بعيدة.. من وراء النهر وقد جاءت علىٰ قدر. وكان لابدّ من ذريعة؛ وفوجئ النّاس بادّعاء «القسري» بأنّه أودع أموالاً للدولة لدىٰ «زيد».

نهض زيد وقد انقطعت به السُبل ونظر إلى الأُفق البعيد فلاحت له حمرة كجراح نازفة فاتّخذ طريقه إلى ابن أخيه.

نهض جعفر إجلالاً لرجل تنافس هامته الجبال.

تبادل الرجلان نظرات تتحدّث بلغة عميقة عجزت الحروف أن تنهض بها.

تمتم زيد:

ـ وكيف يودعني مالاً وهو يشتم آبائي؟!

أدرك جعفر أنّ عمّه يشير إلى كربلاء، فقال بحزن:

ـ ياعمّ إن رضيت أن تكون المصلوب بالكناسة فشأنك!

وسادت فترة صمت، كانا يصغيان خلالها إلى صهيل فرس غاضبة تشقّ بعنف مياه الفرات.

ونهض «زيد» وبوصلة القدر تشير إلىٰ بقعة مدمّاة علىٰ شطآن الفرات.

تمتم جعفر وهو يشيّع عمّه بنظرات دافئة:

ـ ويل لمن يسمع نداءه فلا يجيبه.

3

نشر المساء ستائره، وغمر الليل بظلمته الأشياء يمنحها الغموض والأسرار، وبدت النجوم قلوباً واهنة تنبض من بعيد.

بدا جعفر مهموماً ينوء بجبال الحزن وقد مضت علىٰ رحيل عمّه إلىٰ الكوفة شهور، وللكوفة ذكريات حزينة يمتزج فيها الدم بالغدر والثورة بالخيانة. حتّىٰ لكأن أبناء عليّ لم يخلقوا إلّا للذبح؛ ولقد نفخ عليّ في أبنائه روح الإباء منذ أن هتف علىٰ شاطئ الفرات بصفّين: «الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»، وغدا بنو هاشم وبنو أُميّة نقيضان لا يجتمعان فوجود أحدهما يعني فناء الآخر، وكيف تجتمع النّار بالماء وكيف تعيش الفراشات في ريح السموم، وكيف يصالح عليّ معاوية، وكيف يبايع الحسين يزيداً، وكيف يطيق زيد حياة يرسمها هشام؟

أضاءت في أعماقه صور كالنجوم... كان هشام يبدو فيها ضئيلاً

كذبابة.. وهو يتطلّع برعب وحقد إلىٰ أبناء عليّ...

أشرق مشهد يكاد يضيء التاريخ، يوم نزا هشام علىٰ منبر الخلافة وحانت لحظة الانتقام؛ كان أوّل شيء فعله أن استدعىٰ أباه الذي بقر العلم.

وذهبا يطويان المسافات إلىٰ دمشق، أراد هشام أن يستعرض امامهما اُبّهة ملكه، أن يعوّض عن إحساسه بالمهانة بكلّ ما يحيطه من قلاع وجنود، أن يطعلهما علىٰ كنوزه من الذهب والفضّة، أن يقول لهما أنّه قد اُوتي ملكاً عظيماً.

أوقفهما ثلاثة أيّام على أبواب القصر، أراد أن يقهرهما، أن يظهر تفوّقه، فأعدّ لهما مشهداً.

كان هشام متربّعاً علىٰ سرير الملك، وفي حضرته علية القوم وقادة الجيوش، وفي يد كلّ منهم قوس وهم يرشون سهامهم نحو هدف في آخر البلاط.

ناول هشام محمّداً قوساً وراح ينظر بعينه الحولاء متشفيّاً:

ـ يا محمّد إرم مع أشياخ قومك هذا الغرض.

أجاب أبو جعفر وقد اكتشف ما يرمي إليه:

ـ انّي قد كبرت عن الرمي فاعفني.

حانت لحظة الثأر. إذن سوف يجعل من شيخ العلويين نادرة يتندّر

بها.. سوف تطيش سهامه هنا وهناك وسط قهقهة الآخرين، هتف منتشياً:

ـ كلّا.. لابدّ أن تشارك قومك في الرمي.

أمسك أبو جعفر القوس، وضع سهماً في كبده ورمق الهدف بنظرات ثابتة، وحانت لحظة الإنطلاق..

هتف أحدهم مأخوذاً وهو يتأمّل السهم في قلب الهدف:

ـ يالها من رمية!

أخذ أبو جعفر سهماً آخر وسدّده باتجاه الهدف فأصاب نصل السهم الأوّل وانطلقت السهام العلوية يتبع بعضها بعضاً حتّىٰ تكاملت تسعة أسهم.

نسي هشام حقده، نسي كلّ أهدافه أو رآها تتهاوىٰ أمام سهام رجل من قريش، هتف الأحول مدهوشاً:

ـ أجدت يا أبا جعفر.. أنت أرمى العرب والعجم..

وأردف وهو يقوده إلىٰ سرير الملك:

ـ يا محمّد لا تزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك.. لله درّك.. مَن علّمك هذا الرمي؟ وفي كم تعلمته؟

أجاب أبو جعفر بأدب الأنبياء:

ـ تعلّمته أيام حداثتي ثمّ تركته.

تساءل هشام وقد انتبه إلىٰ وجود جعفر:

ـ ما أظنّ أن في الأرض أحداً يرمي مثل هـذا الرمـي... أيـرمي جعفر مثل رميك؟!

أجاب أبو جعفر وهو يسدّد سهماً من نوع آخر:

ـ نحن أهل بيت نتوارث الكمال والتمام اللّذين أنزلهما الله على نبيّه في قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم ديـنكم وأتمـمت عـليكم نـعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

أفاق هشام وهو يحسّ لسع الكلمات؛ فهتف بغضب مكبوت:

ـ من أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمّد نبيّ ولا أنتم أنبياء؟!

ـ ورثناه عن جدّنا عليّ وقد قال: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح عن كلّ باب ألف باب».

انسحب هشام إلىٰ نفسه وقد رفع راية الهزيمة، واجـتاحته آلاف الشكوك والهواجس، انّه ليس أمام رجل أعزل كما كان يتصوّر؛ إنّه أمام حسين آخر؛ أمام رجل يحمل كلّ ملامح عليّ... عـليّ الذي مـا يزال يخطف سنا سيفه الأبصار.

اشتدّ بريق النجوم ونهض جعفر يطوف أزقّة المدينة، يحمل معه صراراً فيها دراهم ودنانير لمن عصف بهم الدهر، فولاة الأُمور هـذه الأيّام يحلبون الدرّ فإن نفد حلبوا الدم، والنّاس لا حول لهم ولا قوّة.

4

وجد زيد نفسه يمضي وحيداً لكأنّ قدراً عجيباً جاء به إلى الكوفة عاصمة المجد المندرس؛ وكان رجل كوفي يقود بعيره ويحاور صاحباً له، ولم يكن زيد ليكترث لشيء لولا أن تناهت إلى أُذنيه كلمة كان قد سمعها من قبل. قال صاحب الجمل المحمّل بتمر «هجر» إنّه يمضي إلى «الكناسة»، شيء ما جعله ينشدّ إلى تلك البقعة من أرض الله، وتذكّر كلمات قالها ابن أخيه «جعفر».

كانت الشمس قد توسّطت كبد السماء، والجو حارّاً في تلك الظهيرة الملتهبة؛ وقد لجأ الكوفيّون إلى منازلهم فراراً من الحرّ، فبدت الكوفة مقفرة كمدينة مهجورة. فجأة ظهرت إمرأة عجوز عليها ثياب بالية، كانت نظراتها الزائغة تتّجه إلى حمل البعير.

سار الموكب العجيب رجل وبعير، ورجل حجازي دفعته الأقدار إلى مدينة غدرت بأجداده، وامرأة عجوز تنظر بانكسار.

أوقف صاحب البعير بعيره، راح يعدّل حمله ويُشير إلى ثقوب في العِدل محدّثاً صاحبه بشأنها..

اهتزت سفينة الصحراء لتمضي في رحلتها، فسقطت تمرتان، برقت عينا العجوز أملاً وهي تسرع نحوهما، وضعتهما في خرقة واستأنفت نظراتها إلى الجمل لكأنّها تتمنى أن تحدث ثقوباً جديدة فيه.

تساءل زيد أي فقر رهيب أخرج هذه البائسة في هذه الظهيرة الجهنمية.

أراد أن يكتوي بالنّار أكثر فهتف:

ـ ماذا تفعلين يا أَمة الله؟!

ربّما أرادت أن تبدّد كلّ ما قد يعلق بذهن الإنسان من شكوك؛ فقالت بصوت يشوبه حزن عميق:

ـ إن لي سبع بنات لا أجد ما أطعمهنّ به.

كان للكلمات أثر الصاعقة، وقفز قلبه يتلفت يميناً وشمالاً، يبحث عن قيم حملها جدّه من السماء، وعن قيم مودعة في طينة الإنسان منذ خلق الله آدم.

كانت العجوز تنظر إلى رجل غريب عليه سيماء النبوّات؛ تُرىٰ من يكون هذا الغريب!

هل رأيت غيمة في السماء مشحونة بالبروق مخزونة بالرعود؟

تنوء بما تحـمله من دموع ثِقال، فإذا اندلعت الصواعق انهـمر المـطر غزيراً؛ هكذا بدا زيد في تلك اللحظات، انفجرت آلامه دفعة واحدة، شعر بأنّه يهوي من الثريا يتقطّع إرباً إرباً فوق بقعة مضمخة بالدماء منقوعة بالأحزان، فتدفّقت عيناه دموعاً كغيوم حزينة، هتف وهـو يمضي وحيداً:

ـ أنتِ وأمثالك سيخرجونني غداً ويسفكون دمي.

هل سمعته المـرأة وهـو يـتمتم بـذلك؟ هـل أدركت هـوية هـذا الحجازي الذي جاء الكوفة على قدر؟! لقد مضت تتبع البعير تؤمل نفسها في تميرات تسقط من الحمل تحملها إلىٰ بطون جائعة. والخيول العربية تغير علىٰ شواطئ بحر الخـزر مـن أرمـينيا إلىٰ طـبرستان وتـتوغل في بـلاد مـا وراء النهـر حـتّى «فـرغانه»، والسـفن ذات الصواري تفتتح «سرقوسة» في جزيرة صقلية؛ وسيل الغنائم يتدفّق إلى قصر جاثم في دمشق يحكمه رجل أحول.

وتذكّر زيد كلمات قالها عليّ في الكوفة ذات يوم:

ـ ما جاع فقير إلّا بما متع به غني.

5

صرخ هشام بغضب وهو يذرع البلاط بعصبية! وكانت عيناه لا تستقران علىٰ شيء:

ـ ماذا يفعل هذا الأحمق؟

ودّ لو يسحق رأس يوسف بن عمر واليه الجديد على الكوفة، توقّف عند كاتبه وقد برقت عيناه بالغدر:

ـ اكتب إليه: انّك لغافل عن زيد بن علي الغارز ذنبه في الكوفة يبايعه أهلها غير عابئ بك ولا بجندك، فإذا أتاك كتابي فألح في طلبه واعطه الأمان واقتله.

وانطلقت فرس مجنونة تحمل معها هواجس وشكوك ورعب قديم متوارث منذ أن كان «الطريد» يجوب سكك «الطائف».

سماء الكوفة مكفهرة وجبال السحب السوداء تتراكم بعضها فوق بعض تنذر بالصواعق والرعود، كان كلّ شيء غارقاً في السكوت ما

خلا سنابك خيول الدوريات، تجوب الأزقّة بحثاً عن رجل يـدعىٰ «زيد».

وفي بيت غارق في السكينة جلس زيد وقد أحدق به رجال من الكوفة ورجال من بني هاشم دخلوا المدينة في هيئة تجّار.

همس أحدهم قلقاً:

ـ لقد انكشف أمرنا كما يبدو.

ـ أجل؛ خيول الدوريات تجوب الأزقّة.

ـ الخير فيما وقع.. لابدّ من التعجيل بالثورة.

ـ ولكنّا لم نستكمل قوتنا بعد.

قال يحيىٰ وقد أمسك بخيط الحديث:

ـ ماذا تنتظرون؟ لقد بايع أربعون ألف... وجاءت وفود التأييد من المدائن والبصرة وواسط، والموصل وخراسان والري وجرجان والجزيرة.. وقد أفتى أبو حنيفة بوجوب النصرة والخروج على اللّص المتغلّب المتسمي بالخليفة! وبايع الفقهاء.

أضاء البرق لحظة، وانفجر صوت الرعد مدوّياً كأنّه يعلن بدء الثورة. كانت ليلة شديدة البرودة والرياح عاتية.

ارتفعت بيارق الثورة تبشّر بعهد جديد، وانطلقت صرخات الثائرين وتوهجت شعل النار، واستيقظت الكوفة علىٰ شعار النبيّ

«يا منصور أمت» شعار حكاه الأجداد للأحفاد يوم كان «مسلم» يدور في أزقّة الكوفة وحيداً، ويوم ثار «المختار» بعده بأعوام، وها هو حفيد الحسين يرفع صوته منادياً يا منصور أمت، ولكن الذين غدروا بمسلم، وطعنوا الحسين لم يغادروا منازلهم كأنّهم لم يبايعوا بالأمس، لم يأت من الأربعين ألف سوىٰ مئتان. والتفت زيد يميناً وشمالاً فلم يجد سوىٰ الوعود الفارغة وطنين الكلمات الجوفاء، الكلمات التي تفتقد العزم والإرادة، فتمتم بحزن:

ـ فعلوها حسينية.

ووجد الرجل الذي يدعو إلى الرضا من آل محمّد أن الطرق قد أُقفلت بوجهه، ولم يبق سوىٰ طريق واحد، طريق مرشوش بالدماء، طريق ينتهي إلى كربلاء.

كان عليه أن يُقاتل بمئتين ألوفاً، بل نظاماً مدجّجاً بالسلاح، لم يتردّد لحظة، فانطلق كعاصفة غاضبة وسقطت «جبانة الصيادين» ثمّ انعطف باتجاه «الكناسة» فسقطت هي الأُخرىٰ.

كان يوسف بن عمر ما يزال يرقب من فوق التلال سير المعارك ومعه الألوف.

فكّر زيد في لحظات مصيرية انّ قواته التي أنهكها القتال لن تصمد بوجه آلاف الجنود المتمركزين فوق التلال. فانعطف بقوّاته إلىٰ

أعماق الكوفة علّها تستيقظ أو تنفض عن نفسها خوفاً قديماً، علّها تتطهّر من غدر موروث.

وفي «جبانة كندة» حدث أوّل صدام مع جيش الشام، وحدثت المعجزة لقد انتصرت الفئة القليلة المؤمنة على الكثرة الخاوية من الأيمان، وتقدّمت قوّات زيد باتجاه المسجد الأعظم، وقريباً من باب «عمر بن سعد» حدث صدام آخر رهيب انتهىٰ بهزيمة جيش الشام.

وفي «باب الفيل» دوّت نداءات الثورة:

ـ يا أهل الكوفة اخرجوا من الذلّ إلىٰ العزّ وإلى الدين والدّنيا.

وأثبت الثائرون تفوّقهم في القتال، وأخيراً اجتمع أهل الكوفة وخرجوا من منازلهم لا لينصروا زيداً، ولكن لمشاهدة ما يجري من ملاحم.

غيّر «يوسف بن عمر» خططه القتالية كلّها وأدرك ان فرسانه لن يصمدوا في وجه فرسان زيد.

وجاء دور الرماة الذين أخذوا مواقعهم فوق سطوح المباني، وانهمرت السهام كمطر عنيف.

جنحت الشمس للمغيب؛ ربّما حياءً من رجل يعشق النّهار، أو لتدع الظلام يلقي بكلاكله بين المتقاتلين، وفي تلك اللحظة أصاب سهم أعمىٰ جبهة زيد مؤذناً بغروب شمس الثورة.

دوّت الآلام في رأسه؛ آلام لا يطيقها كـائن بـشري. فـانسحب الثائر الكبير إلىٰ بيت «حرّان» في سكّة «البريد».

قال الطبيب بعد أن تفحّص السهم النابت:

ـ إذا انتزعته متّ.

قال الرجل الذي جاء الكوفة علىٰ قدر:

ـ الموت أيسر عليّ ممّا أنا فيه.

أمسك الطبيب كلّاباً لينتزع السهم، وكان يدرك تماماً أنّه سينتزع الروح العظيمة التي دوّخت بعنفوانها عالماً راكداً كنبع فوّار في بـركة آسنة.

أغمض زيد عينيه، انطلقت روحه في الأعالي، وظلّ جسده ممدداً تبحلق فيه عيون حيارىٰ، فهذا الرجل مطلوب من كلاب الحكم حيّاً أو ميّتاً؛ وارتسم سؤال كبير: أين ندفنه؟ وأين نواريه؟ قال أحدهم:

ـ نلبسه درعين ونلقيه في اليمّ.

قال آخر:

بل نحتزّ رأسه ونُلقيه بين القتلىٰ.

اعترض يحيىٰ وقد تمثّلت أنفاسه روح أبيه:

ـ لا والله لا تأكل لحم أبي الذئاب.

سادت فترة صمت، كان المطر خلالها ينهمر هادئاً كسماء تنتحب.

همس أحدهم؛ وقد أضاءت في ذهنه فكرة:

ـ نحمله إلى «العباسية» فندفنه فيها.

انفلق الصبح؛ فانطلق رجال في غبش الفجر يحملون نعش الثورة فرآهم عبدٌ نبطي.

كانت الأرض التي قصدوها وفيرة المياه، لم يضيّعوا وقتهم؛ حفروا للجسد المطلوب حفرتين. وأودعوه التراب، فاحت رائحة طين معطور. ولكي يحكموا الأمر ويطمئن بالهم أجروا الماء فوق القبر ليتحوّل زيد إلى نهر.. نهر يروي للبحر قصّة الثورة والدم والشهادة.

7

مابالها الكوفة تذبح أبناءها، ترمي أفلاذ أكبادها للذئاب، همس الثائر الذي لم يبلغ العشرين بعد:

ـ ليتني ذهبت مع أبي...

كان يشعر بالاختناق رغم انفتاح الصحراء؛ الحصان يسير الهوينى، ينقل خطاه على هون؛ لم تفلح النسمات الخفيفة ان تبدّد الضيق الذي يحسّه الفتى العلوي. لكأنّ بنو مروان يسمّمون حتّى الهواء.

نظر إلىٰ ورائه حيث المدينة المشهورة بالغدر، فألفاها قد غابت، لقد ابتلعتها الصحراء أدار بصره في الجهات، لم يكن هناك سوىٰ تموجات الرمال تمتد لتلامس زرقة السماء في الأُفق البعيد؛ ولاحت للفتىٰ تحت أشعة الغروب الواهنة طرق القوافل، فهذا طريق يُشير إلى الحجاز، طريق عريض مهّدته قوافل الحجيج، وذاك طريق يقود إلى

خراسان، إلى بلاد بعيدة حيث تشرق الشمس.

وقف في مفترق الطرق، كان يتأمّل المكان وقد غمرته حالة من الاستغراق؛ لعلّه كان يفكّر أي الطريقين يسلك.

لامست الشمس رمال الصحراء، بدت بلونها القرمزي جرحاً يفور.

فجأة ظهرت سفينة الصحراء وسط القرص، وقد نشرت ظلالها في بطن الوادي.

شعر «يحيىٰ» بنسمة فرح، لعلّ هذا القادم يحمل أخبار الوطن.. أخبار الأحبّة والأهل والديار، وظل الفتىٰ في مكانه، وتطلّع الحصان إلى الجمل.. صهل عالياً، أراد أن يقول: إنّني أعشق الحرّية، وظلّ الجمل معتصماً بالصمت كعادته، ربّما قال في تمتماته: الصحراء تحتاج إلى الصبر.

اقترب راكب الجمل من راكب الحصان وعرف كلٌّ صاحبه، وتناثرت كلمات السلام كرياحين ربيعية، وقال الفتىٰ:

ـ من أين أقبلت؟

ـ من الحجّ.

ـ وأخبار الأحبّة والديار؟

ـ المدينة حزينة.. حزينة من أجل زيد، لقد بكاه الجميع، وكان

ألوعهم ابن عمّك جعفر.

سكت يحيىٰ، اشتعلت مشاهد قديمة في ذاكرته يوم دخل مع أبيه الشهيد علىٰ عمّه محمّد الرجل الذي فجّر ينابيع العلم؛ تمتم بأسىٰ:

ـ كان عمّي محمّد أشار علىٰ أبي بترك الخروج.. قال لا تترك المدينة، كان يخشىٰ عليه عاديات الزمان، وأردف وهو يحدّق في الشمس التي أوشكت على المغيب:

ـ فهل سمعت ابن عمّي جعفر يذكرني؟

أجاب القادم من الحجاز وكان رجلاً من ثقيف:

ـ أجل سمعته يذكرك.

ـ بِمَ ذكرني؟

ـ لا أحب أن استقبلك بما سمعته.

ـ أنا لا أخشى الموت.. هات ما قاله جعفر.

ـ سمعته يقول: انّك تقتل وتصلب، كما قُتل أبوك وصلب.

اعترته قشعريرة وقد تذكّر أباه على الصليب.

قال بصوت متهدّج:

ـ «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب».

ومرّت لحظات صمت، كان يحيىٰ يحدّق في الأُفق المصبوغ بلون الدّم، قال بصوت يشوبه حزن عميق:

ـ يا متوكّل ان الله أيّد هذا الأمر بنا وجعل لنـا العـلم والسـيف، وخُصّ بنو عمّنا بالعلم وحده.

تساءل راكب الجمل:

ـ جعلت فداك انّي رأيت النّاس إلى ابن عمّك جعفر أميل مـنهم إليكم.

ـ انّه دعا النّاس إلى الحياة، أمّا نحن فدعوناهم إلى الموت.

ـ يابن رسول الله هم أعلم أم أنتم؟

وأطرق الفتىٰ لكأنّـه يـبحث في الأرض عـن شيء، وقـال بـعد صمت:

ـ كلّنا له علم، غير انّهم يعلمون كلّما نعلم، ولا نعلم كلّما يعلمون.

غابت الشمس، وتناثر رماد خفيف في فضاء الكون..

قفر الفارس، وقد غمرته فرحة اللقاء، وبركت سفينة الصـحراء؛ وانسابت كلمات الصلاة كنهر هادئ يتدفّق عـلىٰ هـون، وتـناثرت تمتمات الدعاء، وقد تألّقت النجوم في صفحة السماء.

تطلّع القادم من موسم الحجّ إلى فتىً لم يبلغ العشرين بعد، يحمل معه ميراث أبيه الشهيد، السيف والعلم، همس في نفسه؛ ترىٰ في أي بقعة سوف يصلب هذا الفتى؟ جعفر أيّها الصدّيق ليتك أخبرتني.

رفع يحيى رأسه وكان مستغرقاً في الصلاة:

ـ اعلم انّ قوله حقّ.. أخذه من آبائه.

ونهض إلى حيث وقف الحصان، فاستخرج من الرحل صحيفة مطوية، شمّها، وضعها على جبينه وانسابت دمعتان، شعر انّه يقبّل وجه أبيه الشهيد، تمتم بصوت مخنوق:

ـ والله يا متوكل لولا ما ذكرت من قول ابن عمّي انّني أُقتل وأُصلب ما دفعتها إليك... وهي أمانة لديك حتّى توصلها إلى ابني عمّي..

ـ محمّد وإبراهيم؟!

ـ أجل.. فهما القائمان بالأمر بعدي..

حانت لحظة الوداع.. وأدرك القادم من موسم الحجّ أنّ يحيى قد يمم وجهه شطر خراسان.. حيث تطلع الشمس.

نهض راكب الجمل يشيّع الفارس الذي سلك الطريق إلى خراسان حتّى انطوى في الظلام.

8

عثرت الكلاب علىٰ جسد الشهيد؛ زيد راقد في أعماق النهـر، لم تتركه الكلاب يغفو بسلام، انتشلته من بين أحضان الام الدافئة.. من بين حنايا الطين المعطور.

وارتفع الصليب في «الكناسة»، فصل الرأس عن الجسد العاري، وتمرّ الأيّام مريرة ثقيلة، وفي الليالي يشاهد العابرون حلقات تـتألق بضوء غريب، تتألّق حول المصلوب.

ومنذ ذلك اليوم شهدت مواسم الحجّ رجالاً؛ يسيحون في الشرق يحملون كلمات لها لون الشمس ودفء الربيع، منذ أن هوىٰ زيد ولوّن وجه الأرض، أودعها بذرة طيبة، يوم هتف في الجموع الثائرة:

ـ أدعوكم إلى الرضا من آل محمّد.

واستيقظت الكائنات والكلمات الحالمة تسافر في شرق الأرض.

وشهدت المدن والقرىٰ من «الحميمة» إلى «المدائن» فـ«الري» و

«سرخس» و «الجوزجان» و «الطـالقان» و «ارغـوى» مـن أرض خراسان رجالاً لهم زيّ التّجار، ويحملون معهم كلمات الخلاص من ليالي الظلم.

وكانت الكلاب تطلق نباحها عالياً، وقد فـاحت عـطور الربـيع القادم من وراء رياح الزمهرير، ونبحت الكلاب ثلاثة مـن التـجار يسيحون في وديان الأرض التي تشرق منها الشمس.

قال حاكم تلك الأرض وكان اسمه سعيد:

ـ مَن أنتم؟

ـ تجّار.

ـ فما هذا الذي يذكر عنكم؟

ـ وما ذكر عنّا أيُّها الأمير؟

ـ دعوة إلىٰ الرضا من آل محمّد.

ـ أيّها الأمير! ان لنا في أنفسنا وتجارتنا لشغل عن مثل هذا.

سكت الأمير وهو يحدّق فيهم.

قال تاجر:

ـ انّما نحن عابرو سبيل لا نفقه في الدّنيا غير البـيع والشراء، فـإن شئت عدنا من حيث جئنا.

ـ أجل عودوا من حيث جئتم.

واختفى التّجار في جبال خراسان، وكانت الكلاب تنبح، أصابها مسّ من الجنون، واستيقظ الأمير بعد فوات الأوان؛ وقد اختفى التّجار، بلعتهم أرض الشرق، وكانت الكلمات تسافر، تعبر الجبال وتطوي الوديان، وفاحت روائح الربيع القادم من وراء ألف ليلة من ليالي البرد.

وتزايد عدد التّجار، وشهدت «الحميمة» من أرض «البلقاء» تجّاراً يفدون علىٰ رجل من بني العبّاس.

قال الرجل وكان اللّيل في هزيعه الأخير:

ـ هذا أوان ما نأمل ونرجو، لقد مضت مئة من التاريخ، وانّه لم تنقض مئة سنة علىٰ أُمّة قط إلّا أظهر الله الحقّ وأبطل الباطل.

وتلا الرجل بخشوع متكلّف:

ـ «أو كالذي مرّ علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، قال أنّىٰ يُحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه».

وسكت الذي قال انّه امام ثم قال:

ـ انطلقوا أيّها النفر فادعوا النّاس في رفق وستر فانّي أرجو الله أن يتمم أمركم ويظهر دعوتكم.

9

كان موسم الحجّ ذلك العام عاصفاً بـالرياح والحـوادث، خـلع التّجار أزياءهم وارتدوا ثياب الاحرام، وقد ورد مكّـة شـابّ مـن خراسان في مهمّة سريّة وحوله أنصار يحوطونه من بعيد.

كما وردت «جميلة» وحولها شلّتها من المغنّين والمغنيات؛ فاحتفل بها أهل مكّة، وهم يستعيدون أُغنيات العشق والبادية والفراق.

ضاعت الروائح على الكلاب وتعطّلت أُنوفها وقد بدأت مناسك الحجّ الأكبر.

وفي جنح الظلام وفي بطن الوادي التقى التّجار على حذر.

لم يطل انتظار التّجار كثيراً، فقد وصل إبراهيم (الإمام) وجـلس بين دعاته. مرّت لحظات صـمت مـهيب، وكـان الجـميع يـرهفون آذانهم. ربّما تبعهم كلب. قال تاجر وقد ضجر من السكوت:

ـ قد حملنا إليك مالاً.

ـ كم هو؟

ـ عشرة آلاف دينار.

ـ سلّموها إلى عروة.

وأردف إبراهيم وهو ينظر إلى الشاب الخراساني بإعجاب:

ـ انّي قد رأيت أن أولّي هذا الأمر هناك أبا مسلم. لقد جرّبت عقله، وانّي لأرجو أن يسوق إلينا الملك، فعاونوه.

وتناثرت كلمات الإنصياع:

ـ سمعاً وطاعة للإمام.

نهض إبراهيم وتلفّت حواليه قبل أن ينصرف؛ وتفرّق المجتمعون، وأقفر ذلك المكان من الوادي وهيمن صمت مهيب يقطعه عواء ذئب بعيد، لعلّه يتأوّه من زمهرير الليل.

انطوت مناسك الحجّ وقد شهد الناس منافع لهم، وغادرت قوافل الحجيج مكّة.

وعادت «جميلة» إلىٰ وطنها في الشمال، وقد حفّ بها ناس من أهل مكّة والمدينة، وكان الحادي يقود القافلة، والإبل تهوي في بطون الأودية كنغمات حالمة.

وعرّج بعض «التجار» علىٰ يثرب، فهذه المدينة ما تزال تتذكّر جراحاً قديمة، ربّما أفاد منها التجار؛ وكان أكثرهم حماساً فتىٰ

خراسان، كان يرتدي حلّة بيضاء، بيضاء كقمم «الطالقان». كان همّه أن يلتقي رجالات في المدينة، رجالات من آل محمّد.

وأيسر شيء على المرء أن يهتدي إلىٰ منزل جعفر بن محمّد، فالأصابع تُشير إليه.

فضل أبو مسلم الذي بدا ذلك الصباح أكبر من عمره بكثير أن يأتي فرداً.. بدا في الأربعين وهو قد ناهز الخامسة والعشرين، في عينيه تموج أُمنيات عظيمة.. أن يحكم الأرض التي تطلع منها الشمس.

وأخيراً وصل؛ ألفى الباب مفتوحاً، ووجد من يقوده إلى حيث جلس جعفر بن محمّد، لم يجد صعوبة في تعرّفه، فقد كانت العيون ترنو إلىٰ وجه أزهر، يتألّق في جبينه ضوء عجيب، رقيق البشرة أسود الشعر قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهراً له إشراق، وقد تلألأ خال في خدّه الأيمن، وهو في هيئته ينبئ عن رجل ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير.

تقدّم أبو مسلم ولم يتمالك أن انحنىٰ ليقبّل ذلك الجبين. فاحت رائحة ذكّرته برائحة الربيع في ربوع خراسان عندما تتفتح ورود النسرين وتينع أزهار النرجس، واتخذ القادم من خراسان مكانه قرب رجل من آل محمّد، قال جعفر وهو يلمس ثياباً ناصعة:

ـ ما رأيت اليوم أشدّ بياضاً ولا أحسن من هذه.

أجاب أبو مسلم وقد ارتاح لهذه المجاملة:

ـ يا سيدي هذه ثياب بلادنا وقد جئتك منها بهديّة.

التفت جعفر إلىٰ غلامه:

ـ يا معتب اقبضها منه.

ومرّت اللحظات كان جعفر يطيل فيها النظر إلىٰ ضيفه حتّى إذا استأذن وغادر المنزل، هتف جعفر:

ـ إن صدق الوصف وقرب الوقت؛ فهذا الرجل هو صاحب الرايات السود التي تطلع من خراسان، وهتف بغلامه:

ـ يا معتب الحقه فاسأله عن اسمه وهل هو عبد الرحمان؟

وانطلق الغلام، وسادت فترة صمت، وقد برقت في الذهن نبوءات قديمة عن ملاحم ورايات تطلع من خراسان، عن سيوف وجماجم وزلازل، وعاد الغلام:

ـ أجل يا سيدي؛ اخبرني ان اسمه عبد الرحمان؛ وقال انّه سيعود تحت جنح الظلام، فلديه أمر هام.

غمر الليل المدينة وأقفرت الأزقّة من العابرين، وبدت الكوى المضيئة ينابيع من نور.

كان عبد الرحمان يشقّ طريقه نحو منزل دخله في الصباح فعاد

إليه في المساء.

كان يدرك أن ظلام بني مروان لن تزيله إلّا جذوة من آل محمّد، من بني عليّ؛ لهذا طرق المنزل.

جلس عبد الرحمان في حضرة جعفر كما يجلس الجندي في حضرة القائد؛ وشعر القادم من خراسان انّه أمام رجل عظيم.. رجل لو أراد أن يلوي الأقدار لأمكنه ذلك.

همس عبد الرحمان بشيء من الحذر:

ـ انّي دعوت إليك الناس في خراسان فهم شيعة لك، وأنت أحقّ النّاس بهذا الأمر من غيرك.

نظر جعفر إلى السماء المرصّعة بالنجوم وقال:

ـ انّ ما توحي إليه غير كائن لنا، حتّى يتلاعب به الصبيان من بني العبّاس.

وشعر عبد الرحمان بالذعر فهذا الرجل تتكشّف له الحُجب، يخترق أستار الزمن، يعرف ما يدور ويجري، ولعلّه يعرف أيضاً ما يحوكه التّجار في الظلام وتلك الرحلات السرّية بين خراسان والحميمة، لهذا فضّل أن يغادر البيت على عجل، بل يغادر المدينة بأسرها.

10

انطوى قرن وربع من التاريخ، النار تسري تحت الرماد، اشتعلت ثورة في الجوزجان، أشعلها يحيىٰ بن زيد؛ ظلّ يقاتل وحيداً حتّى قُتل، وارتفعت خشبة الصليب تحمل جسداً مضمخاً بجراح الأنبياء؛ فيما راح الرأس يطوف المدن الغريبة حتّى إذا وافى المدينة أُلقي في أحضان أُم ثكلى كان اسمها ريطة، من ذرّية عليّ. قالت وهي تتأمّل رأس الذبيح:

ـ شردتموه عنّي طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً، صلوات الله عليه وعلى آبائه بكرة وأصيلا.

أظهر التّجار حزنهم، ارتدوا ثياب الحداد، وفرك بعضهم يديه جذلاً، فصليب في الكوفة وصليب في «الجوزجان» وما بينهما بحر ستثور أمواجه وتغرق الفراعنة.

وانطلق التّجار صوب المدينة يبحثون عن صلبان جديدة، وليكن

محمّد بن عبد الله بن الحسن المهدي الموعود الذي بشّرت به الكتب!

وفي ليلة شتائية ورياح كانون تعصف بعنف اكتمل شمل التجار في منزل ذي النفس الذكية، وجاء أبو عبد الله يشقّ طـريقه في الظـلام والعاصفة.

نهض الجميع، واتخذ الرجل الهاشمي العلوي مكانه بـين أخـوين أحدهما من أُم عربية والآخر من بربرية.

كانت العيون تتّجه إلى محمّد بن عبد الله شاب يذكّر بالنّبي الأُمّي، وكان إلى جانبه أخوه إبراهيم ليس بينهما في المكان شبر وفي الزمان أربع سنين سويّاً.

كان الجمر في الموقد ما يزال متوقّداً يرسل ضَوءًا واهناً ودفأً.

قال ابن الحسن وقد استوىٰ جعفر في الجلوس:

ـ يا أبا عبد الله! ان لنا شيعة في خراسان مئة ألف.

قال الذي عنده علم الكتاب:

ـ مئة ألف!!

ـ بل مئتي ألف.. وقد بايعوا ولدي محمّد فماذا ترىٰ؟

توهجت نبوءات قديمة:

ـ ومتىٰ صاروا لك شيعة يا أبا محمّد؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه ونسبه؟

ـ . . . .

ـ كيف يصيرون شيعتك وأنت لا تعرفهم ولا يعرفونك؟

ـ ...

ـ أأنت وجّهتهم إلى خراسان؟ أم أنت أمرتهم بلبس السواد؟

تحرّكت الوساوس فقال بعد صمت طويل:

ـ لقد حملك الحسد لابني.

أجاب سليل الحسين:

ـ علم الله أنّي أوجب على نفسي النصح لكلّ مسلم، فكيف أدّخره عنك فلا تمنّي نفسك الأباطيل، فلقد جاءني مثل الذي جاءك، وأدرف وقد اشتعلت النبوءات:

ـ ان هذه الدولة ستتمّ لهذا.

وسرت قشعريرة في جسد أبي العبّاس وقد لامست يد جعفر منكبه.

والتفت الذي عنده علم من الكتاب إلى شماله حيث جلس ابن البربرية وهتف مهموماً:

ـ ثمّ يتلاعب بها الصبيان من ولد هذا.

وسادت المكان لحظات صمت.. لحظات عجيبة لكأنّها خارج الزمان.

أطرق الجميع يحدّقون في الأرض وقد انطفأ الموقد، وسادت ظلمة الليل.

نهض الصادق وقد فضح ما تضمره الأيّام، ونهض رجل يشيّعه، همس مبهوراً وقد وصلا عتبة الباب:

ـ أتدري ما قلت يا أبا عبد الله؟!

ـ أي والله وانّه لكائن.

وأردف وهو يشير إلى صاحب الرداء الأصفر؟

ـ تعني أبا جعفر؟

ـ أجل.. انّه سيقتل محمّداً.

هتف الرجل مأخوذاً:

ـ يقتل محمّداً؟!

ـ نعم سيقتله في «أحجار الزيت» ثم يقتل أخاه إبراهيم.

وانصفق الباب وظلّ الرجل مبهوتاً لا يدري ما يقول.

11

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك. سقطت قبرص في قبضة المسلمين. وخَلع الوليد من الخلافة، وقُتل في «قصر النّعمان» في «تدمر» حيث أُسرت «زنوبيا» من قبل.

وجاء إلى الحكم «الناقص» فطعنه الطاعون ومات. حتّى إذا مرّ عام ظهر «الحمار» يمتطي حصاناً ويغير على دمشق ينتزع الخلافة، وقد خلعت دمشق ثوب العواصم.

وكان التّجار ما انفكوا يجوبون المدن بين «الحميمة» والأرض التي تطلع منها الشمس.

حتّى إذا ثارت عشائر اليمانية في الشام وخرجت «الحرورية» في الجزيرة، وثار العلويون في الكوفة، وظهرت القلاقل في الأندلس، وحمل قسطنطين الخامس على الشمال الإسلامي فيغتصب «مرعش»، وعاثت الأباظية في مكّة، وغرقت «قبرص» في بحر

الروم؛ وضربت الزلازل بيت المقدس؛ واجتاح الطاعون «البصرة»، وارتفعت الرايات السود في الأرض التي تطلع منها الشمس، دوّت سورة القدر.

وشمّت الكلاب رائحة البراكين؛ فانطلقت خيول البريد تنهب المسافات تحمل صيحة الاستغاثة:

ـ أرىٰ تحت الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام
وقلت من التعجب ليت شعري
أأيقاظ أُميّة أم نيام؟

صرخ الحمار كمن لدغته عقرب:

ـ بل أيقاظ نحن!

تعالىٰ نباح الكلاب وهي تقتفي الأثر من دمشق إلىٰ «الحميمة» من أرض البلقاء.

كان «إبراهيم» جالساً عندما دهمته الكلاب، وأوثقته كتافاً وحمل مخفوراً إلى قصر في «حرّان» عاصمة الحمار.

رمق الحمار غريمه بغيظ:

ـ ما هذه الجموع التي خرجت بخراسان تطلب لك الخلافة؟

أجاب الأسير:

ـ لا علم لي بذلك؛ انّما تريد التجنّي علينا.

سكت الحمار، كان قد اكتشف كلّ شيء، ولكن بعد اشتعال الحريق.

هتف بيأس:

ـ خذوه إلى السجن.

الليل في «حرّان» حالك السواد، ارتدت الأشياء فيه أقنعة غامضة تنذر بالخطر.

بدا مروان في قلب الظلمة شبحاً خائراً؛ ريشة في مهبّ الاعصار القادم من الشرق؛ هاهي الأقدار تعصف بعنف، وقد آن للأبناء أن يجنوا ثمار بذور قديمة؛ والشجرة الملعونة تهتزّ من الجذور، قد اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

صفق الحمار بيديه، فحضر رجال غلاظ، بدوا كتماثيل منحوتة من الصخر، زادهم الليل البهيم وحشة.

كانوا عصبة، الخناجر تبرق في قبضاتهم. وقفوا ينتظرون شارة الحمار.

من يرهف السمع في تلك الليلة الموحشة لأمكنه أن يصغي إلى سخرية القدر، كيف يمكن لخناجر معقوفة في الظلام أن تطفئ وهج آلاف السيوف في ربىٰ خراسان.

انسلّ الرجال الغلاظ إلىٰ حيث سجن «إبراهيم».

تبادلوا كلمات مقتضبة حول مهمتهم في قلب الليل.

فتح السّجان الأبواب بعدما تأكّد من هويتهم، أحدث دخولهم ضجّة وضوضاء، وأرهف المحبوسون أسماعهم. قدّر بعضهم الداخلين بعشرين شرطي، وقال آخرون أنّهم أكثر، وقال أحدهم: كلّا انّهم عصبة أولي قوّة وأولي بأس شديد.

استمرت الجلبة في زنزانة الرجل العبّاسي، ثمّ هدأ كلّ شيء. عاد الصمت مهيمناً على المكان الموحش حيث يتعطّل الزمن لا شيء عن الماضي سوى الذكريات، ولا شيء عن المستقبل سوى أُمنيات، ولا معنىٰ للحاضر إلّا في كلمات.

وفي اليوم التالي قال السّجان: إنّ الشمس قد أشرقت وإن أحد السجناء قد مات، وجاء رجال يشبهون الموتىٰ حملوا الميّت إلى مثواه.

قال رجل سجين:

ـ لقد خنقوه.

ضحك أحدهم ساخراً لأنّ الأمر لا يحتاج إلى توضيح.

12

أسفر التّجار عن هوّيتهم، نزعوا لثـاماً اخـتبأوا وراءه أعـوامـاً، بركت الإبل، وانتفضت الخيل، وتألّقت السيوف في الأرض التي تطلع منها الشمس؛ وارتفعت رايات سود.

استيقظت «الكوفة» في الهـزيع الأخـير مـن اللّـيل، اسـتيقظت مبهورة بما يجري، كانت ما تزال مسلوبة مغلوبة، راحت تبحث عـن ثوب العواصم، ثوباً أضاعته قبل ألف شهر.

هناك في درب الخـلّالين رجـل يـدعى أبـو سـلمة، رجـل مـن «همدان»، كان يعمل بصمت، فلا تشمّ الكلاب في منزله سوىٰ رائحة الخلّ، أمّا الهاربين اللّذين فرّا من الحميمة فلم يشعر بهما أحد.

وذات ليلة وقد أشرقت «سورة القدر»، جـلس خمسـة نـفر في منزل في درب الخلالين بالكوفة. قصّاب وخلّال ورجل يبيع توابل هندية وهاربين تبحث عنهما كلاب الحمار.

قال ابن البربرية وقد عضّه الجوع:

ـ لحـــم مســـاور وخـل أبي سـلمة
وابـــزار يـــقطين وطــابت المـــرقة

تمتم مساور:

ـ لقد اخترت لكم أطيب ما في الضأن ، وقال يقطين وقد فاحت رائحة التوابل:

ـ وهذه الابزار.

ورمق أبو سلمة ابن البربرية وهو يشير إلى آنية فيها خلّ. ظـلّ الخامس صامتاً، لكأنّـه يـصغي إلى قـعقعة السـيوف القـادمة مـن خراسان.

كان «ابن البربرية» أكثر شهية من أصحابه، قد انفتحت نـفسه على الطعام والكلام.

هاهي السيوف تبرق في المدن الخراسانية وقد ثـارت «هـراة» و «بوشنج» «والطالقان» و «نسا» و «ابيورد» و «طوس» و «نيشابور» و «سرخس»، وتمـرّدت «بـلخ» و «كش» و «نسـف». تـذكّر ابـن البربرية نبوءة أفصح عنها الصدّيق جعفر ذات يوم:

ـ مروان خاتم بني أُميّة.

آن للمدن أن تتطهّر من كلّ الآثام القديمة، انبعث جواد الحسـين

من أعماق الفرات يُقاتل؛ يُطلق صهيلاً عالياً، يوقظ المدن الخائفة، يبشّر بالفجر القادم من وراء آلاف الليالي.

وفي «حرّان» التي تقمصت ثوب العواصم كان مروان الحمار يشعر بالاعياء بعد هزيمة ساحقة في «الزابين».

حرّان غارقة في الظلام ما خلا قصر وحيد بدا في تلك الظلمة الرهيبة ساحراً مهزوماً.

«الحمار» يذرع البلاط؛ يعبث بلحيته؛ لا يدري ماذا يفعل؛ الأرض تهتز تحت قدميه بعنف، والبركان الذي انفجر في الأرض التي تطلع منها الشمس يرسل حممه، فيحرق قصوراً، ويشتّت جنوداً.

مروان ما يزال يدور في أروقة قصره المنيف. كحمار السواقي، توقّف عند نافذة صغيرة؛ ألقى نظرة على بوّابة القصر فرأى حارسين قد غلبهما النوم كمن يغرق في بحر لا قرار له.

شعر «الحمار» انّه يغرق في لجّة سحيقة من اليأس، لم يعد هناك من أمل، عليه أن يرحل، ولكن إلى أين؟ والسيوف الخراسانية تطارده والمدن تسقط الواحدة تلو الأُخرىٰ.

هتف بإسماعيل وكان أخاً للقسري:

ـ لبيك يا أمير المؤمنين!

رمق مروان مستشاره:

ـلقد أرسلت وراءك لأعرف رأيك في أمر عزمت عليه.

ـعلام أجمعت يا أمير المؤمنين؟

ـعلى الرحيل.

ـإلى أين؟

ـإلى الروم... اصطحب أهلي وولدي ومن تبعني من أصحابي وألجأ إلى ملك الروم؛ حتّى إذا تكامل جندي وتكثف أمري حاربت عدوّي.

سكت الحمار؛ كان ينتظر الجواب، هيمن صمت مهيب؛ كان المستشار يعالج همّاً في أعماقه واستيقظت في نفسه شهوة الانتقام، فقال بمكر:

ـكيف تلجأ إلى أهل الشرك... والروم معروفون بالغدر .

ـفماذا ترى إذن؟

ـأرىٰ أن تقطع الفرات، وتدور في مدن الشام، فإن لك في كلّ مدينة جنوداً، ثمّ تتّجه إلى مصر، أكثر أهل الأرض مالاً وخيلاً ورجالاً. وتكون الشام أمامك وأفريقيا خلفك، فإن كان النصر حليفك عدت إلى الشام، وإن تكن الأُخرى فإن أفريقيا واسعة نائية.

تكاثفت الظلمة فوق الأرض، وقد مرّ ألف من شهور مشحونه بليالي الزمهرير، ولم يبق سوى ليلة واحدة، هاهو الحمار يمعن في

الفرار بعد المعركة الأخيرة، لم يبق إلىٰ جانبه سوىٰ غلامه، أضحت فلوات أفريقيا حلمه في النجاة.

انطوى النّهار والفارسان يمعنان في الفرار؛ حتّى إذا حل الظلام كانا قد وصلا شواطئ النيل. ظهر القمر في الأُفق، كان يرسل أشعته الفضيّة فوق أمواج النهر، وهو يشقّ طريقه صوب البحر غير عابئ بملك شريد لا يملك من كلّ سلطانه العريض سوىٰ درع وحصان وسيف مهزوم.

قال الغلام وقد رأىٰ قارباً في الشاطئ:

ـ ألا نستقلّ هذا القارب يا سيدي فنعبر النهر؟

ترك الحمار حصانه يرتاد الماء، وكذا فعل الغلام. واتّجها صوب القارب؛ طلب صاحب القارب أجراً فهزّ الغلام رأسه موافقاً.

انطلق القارب يشقّ طريقه بوهن، وساد صمت مخيف، ما خلا صوت المجذاف وهو يشقّ صفحة «النيل» في رتابة مملّة.

قال صاحب القارب وقد أراد أن يكتشف هويّة الرجلين:

ـ لعلّكما تريدان قرية بوصير؟

أجاب الغلام بغير اكتراث:

ـ نعم...

حاول آخر ملوك الشجرة الملعونة في القرآن أن يبقي عينيه

مفتوحتين، ولكنّه وجد نفسه ذليلاً، كان يرفع جفنيه بصعوبة في كلّ مرّة، وكان وزنهما يزداد حتّى غديا كالجبال، وشعر الحمار في تلك اللحظات انّه لم يعد شيئاً، فأغمض عينيه واستسلم للنوم... وعندها أدرك أن النوم قد غلب بني أُميّة.

هاهو ذاهل عمّا يجري حوله؛ حتّىٰ إذا ارتطم القارب بالشاطئ هبّ مروان مذعوراً وهو يمسك بمقبض سيفه.

ترجّل الحمار وسار خطوات باتجاه الشاطئ حتّى إذا وجد بساطاً رملياً مناسباً ألقى بدرعه واتّخذه وسادة واستغرق في نوم ثقيل؛ ولم يستيقظ الحمار فقد انصرمت أيّامه وأدركته السيوف لتمزّقه؛ وانطوت آخر ليلة في سورة القدر.

13

الوقائع عالم متزلزل، يموج بالناس وتموج النّاس به، عالم يـزخـر بالبروق والرعود والأمطار، عالم تعصف به الريح من كلّ مكان؛ أمّا الحقائق فعالم آخر، عالم ثابت ثبات الجبال، وهادئ كالبحيرة، عالم رائق كالنّور، مفعم بالسكينة والطمأنينة والسلام. فإذا عاش المرء في عالم الوقائع عاش قلقاً، نهباً للهواجس، والمخاوف؛ يتحوّل نومه إلى أرق طويل، وتنقلب حلاوة الحياة إلى شعور عـميق بـالمرارة. أمّـا الانسان الذي يحيا في عالم الحقائق المشرقة. فيصبح ابن تلك البـيئة المدهشة بثباتها، وصفائها، وإشراقها؛ وهكذا عـاش جـعفر؛ كـانت الأرض تهتزّ تحت قدميه بـعنف... فـالجيوش القـادمة مـن الشرق تحمل رايات سود وتبشّر بدولة جديدة شعارها الرضا من آل محمّد.

وآلاف المؤامرات والدسائس تحاك في الظلام. وبـاتت الأشـياء تهتزّ، والعقائد تتزلزل في النفوس، ولم يعد هـناك مـن ثـبات. فـقد

ضرب الزلزال كلّ شيء.

جلس وارث النبوّات في محرابه؛ كان ضوء الغروب قد تسرّب من كوّة صغيرة فبدت كشلال من نور يغمر أرضية الحجرة المفروشة بحصير منسوج من خوص النخيل.

الصمت يغمر المكان، ما خلا تمتمات دعاء ينساب بحزن.

شيئاً فشيئاً انسحب الضوء وانطفأت الكوّة المضيئة، وانبثق الظلام لكأنّه يتسرّب من كلّ أجزاء الحجرة؛ من الجدران؛ من السقف؛ حتّى من الكوّة نفسها، لكأنّه كان يترقّب رحيل الشمس.

كانت رياح كانون القارسة تجوس المدينة دخل «معتب» بهدوء يمشي على أطراف أصابعه، لم يكن يريد أن يعبث في السكينة التي تغمر الحجرة؛ كان همّه أن يوقد السراج ويعود لشأنه تاركاً سيّده في استغراقه المهيب.

ارتفعت دقّات حذرة على الباب.

رفع «الصدّيق» رأسه وألقىٰ نظرة علىٰ «معتّب»، خفّ الغلام ليعرف من يكون القادم في هذا الليل والبرد.

عاد معتب وخاطب سيّده بإجلال:

ـ إنّه سدير يا سيّدي... سدير الصيرفي.. ومعه رجل ملثّم.. ويبدو أنّه ليس من أهل هذه الديار.

أجاب سليل محمّد:

ـ ليدخلا.

جلس سدير في حضرة رجل ليس على وجه الأرض مثله. تمتم معرّفاً ضيفه:

ـ إنّه رجل من شيعتك يحمل إليك رسالة من أبي سلمة الخلّال.

أخرج الرجل الملثم رقعة مطوية بعناية وسلّمها إلىٰ سليل النبوّات.

الكلمات القادمة من الكوفة، تحمل معسول الوعود... فقلد آن للخلافة أن تعود إلى أصحابها، وآن لوارث عليّ أن يعود إلىٰ عاصمة أبيه.

رفع ابن عليّ عينيه وخاطب معتباً:

ـ ادن منّي السراج.

تساءل سدير في نفسه: ألم يكن الضوء كافياً؟

لم تطل حيرة الصيرفي وارتسمت فجأة إمارات الدهشة تعلو وجهه وتشف من عينيه.

قرّب سليل النبوّات الرسالة من شعلة السراج. التهمت النّار الرسالة واحترقت، وأضحت تلك الوعود المعسولة مجرّد رماد. هتف الرجل الملثّم:

ـ والجواب؟

نظر الصدّيق إلىٰ رماد الرسالة.

ـ هذا جواب كتابه.

كان السراج ما يزال يبعث النور، وشيئاً من الدفء. نهض الرجل الملثّم وغادر الحجرة بصمت.

لم يطق سدير الصمت، فقال بلهجة يشوبها عتب:

ـ يا أبا عبد الله ما يسعك القعود.

ـ ولِمَ يا سدير؟

ـ لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك.

ـ يا سدير وكم أن يكونوا؟

ـ مئة ألف.

ـ مئة ألف؟!

ـ نعم؛ بل مامئتي ألف.

قال الذي ينظر إلى الحقائق لا الوقائع:

ـ لو كان عندي عدد أصحاب النّبي في بدر لنهضت.

كان نور السراج ينعكس علىٰ وجه سدير وقد ارتسمت علامات استفهام علىٰ جبينه وقد ماجت في أعماقه تساؤلات لا حصر لها؛ وهذه الآلاف المؤلفة في خراسان، وتلك الرسائل التي تأتي من

الكوفة؛ وتذكّر يوم جاء مبعوث أبي مسلم يقول إنّه دعا إليه الآلاف وقد آن له أن يرفع اسمه عالياً في أرض خراسان وفي أرض الإسلام «اني قد أظهرت الكلمة ودعوت النّاس إلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك».

تذكّر سدير كيف ألهبت الكلمات الحماس في نفسه، أثارت الأُمنيات الخضراء، وكيف كانت العيون تتطلّع إلى ابن محمّد، ترىٰ هل سيشعل نار الثورة في مدينة جدّه؟

تذكّر كيف التفت الصدّيق إلىٰ مبعوث الخراساني قائلاً:

ـ قل له ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني.

تساءل سدير في أعماقه كيف يطيق «أبو عبد الله» كلّ هذا الصمت وقد انفجر الزلزال في الأرض التي تخرج منها الشمس، كيف يطيق كلّ هذا السكوت، وصرخات الخراسانيين تملأ الخافقين تدعو إلى الرضا من آل محمّد؟

نظر أبو عبد الله إلىٰ صاحبه الحائر، أراد أن يعلّمه أن هذا الزمن هو زمن الصمت، فقال بصوت فيه نبرات الأنبياء:

ـ كونوا لنا دعاة صامتين.

ـ يا سيدي وكيف ندعو إذاً ونحن سكوت؟

أجاب الذي عنده علم الكتاب:

ـ تعملون بما أمرناكم به من طاعة الله وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدون الأمانة، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ولا يطلع الناس منكم إلّا على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فعادوا إليه.

ونهض سدير وقد أضاءت السُبل أمام عينيه، أدرك أن تغيير العالم يبدأ من أعماق النفس، ذلك «ان الله لا يغيّر ما بقوم حتّىٰ يغيّروا ما بأنفسهم».

14

عندما يغمض الإنسان عينيه، تستيقظ عشرات الوحوش الكاسرة، تنفلت من أسارها، فتضجّ الغابة المظلمة بالعواء، فإذا الإنسان خائف يترقّب، لم يعد شيئاً أمام تلك الوحوش المفترسة؛ وكيف له أن يقاوم عشرات الضباع والذئاب والخنازير، وهكذا فرّ الإنسان بعيداً، لقد استحال العالم إلىٰ غابة مخيفة.

وضع ابن البربرية رأسه علىٰ وسادة ناعمة، وتمدّد في فراشه الوثير فراش انتزعه من ملوك عصفت بهم الأيّام، يده ما تزال تمسك بمقبض سيف قاس، آلاف الخطط والمؤامرات تتراكض في رأسه كخيول مجنونة. برقت في ذهنه عشرات الوجوه، كانت ذات يوم وجوهاً صديقة، أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء وبدت الصورة مقلوبة تماماً، أضاء وجه محمّد ثمّ إبراهيم وبرقت صورة جعفر الصادق، ثمّ ظهر أبو سلمة، ثمّ سيطر وجه أبي مسلم، وتتابعت الصور والوجوه،

حتى إذا أغمض عينيه هدأت الخيول وانطفأت المشاهد وولج ابن البربرية عالم الأحلام فنام في عالم اليقظة واستيقظ في عالم النوم.

كان جالساً القرفصاء لمّا جاءته عجوز شمطاء لم تترك من أصباغ الزينة شيئاً إلّا ودهنت به وجهها، رمت الأغلال والسلاسل فطوّقت بها عنقه ثمّ انتزعته من مكانه وراحت تركض؛ ووجد نفسه يركض خلفها مبهور الأنفاس، راحت العجوز المدهونة بأصباغ الزينة تخوض به أنهاراً من دم وقيعاناً من أوحال. شعر بالإختناق وغدا صدره قفصاً من حديد قضبانه صدئة؛ صرخ فهبّ من نومه مذعوراً وألفى نفسه في فراشه الوثير وإلى جانبه سيف بدا كثعبان متحفّز.

جفّف جبينه المتصفّد عرقاً رغم برودة الجوّ؛ الرياح تعوي خارج القصر كذئاب جائعة.

راح يحدّق في الظلام، فتراءت له أشباح كان يعرفها، أشباح لها صور آدمية، كانت تتطلّع إليه؛ بعضها يبكي وبعضها يبتسم ساخراً، وبعضها يتهدّد ويتوعّد، وكان هناك وجه لرجل قد ناهز الستين، وجه عجيب له نور القمر وسكينة الحمائم وعمق البحر، وهدوء النخل، شعر بأن نظراته تخترق جلده وتنخر عظامه، فتمتم حانقاً:

ـ هذا الشجى المعترض في حلقي.

منذ أعوام مات الإنسان، وانتفض الخنزير القابع في الأعماق

المظلمة.. مزّق ظلمات ثلاث وراح يعربد، تدفقت أنهار من دم عبيط.

مرّت سنوات وسنوات، وقد حصدت السيوف بني «مروان» فغدو كعصف مأكول، مزّقتهم الأيّام شرّ ممزّق وصاروا أحاديث... حكايات يرويها الأجداد للأحفاد عن الظلم الذي لا يدوم.

ولكن ما دهى هذا السيف الذي برق في الأرض التي تطلع منها الشمس، لماذا لا يعود إلىٰ غمده وقد وضعت الحرب أوزارها، ما الذي دهىٰ طاحونة الموت لاتفتأ تدور وتدور كمن أصابها مسّ من الجنون؟

ماتزال العجوز الشمطاء المتبرّجة بكلّ أصباغ الزينة تركض تجرجر وراءها ابن البربرية، تخوض به أنهار من دم لم يتغيّر لونه...

15

دار الزمن دورته؛ وما انفك التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك.

قُتل أبو سلمة؛ اغتاله رجال ملثمون في قلب الظلام؛ لقد انتهى دوره بإعلانه الإمامة الهاشمية، وكان يقلّب أمره على خطرين.

ماتت رابعة العدوية، براها العشق الإلهي فثوت فوق جبل الطور قبل أن تبلغ الأربعين.

الرجل القادم من خراسان ينساق إلى الموت وكان بالأمس يذيق النّاس مرارته، كانت الجماجم تتساقط من حوله؛ جماجم من مختلف الشعوب فالمجد للسيف، حتّى إذا خمدت الأنفاس وسكنت الأجراس ومضى على التاريخ قرن وثلث دوّت ساعة القصاص وكانت العنكبوت تنسج بيتاً هو أهون البيوت.

قال ابن البربرية وقد استوى على عرش نهض على الجماجم:

ـ الحق أبا مسلم وردّه إليّ.. انّني لم أعد أطمئن له...

سكت قليلاً وأردف بمكر:

ـ انّك تعرف كيف ستردّه يا جرير.

ـ أجل يا أمير المؤمنين.

ارتدىٰ جرير فراء الثعالب؛ فبدا ناعم الملمس.

ركب الثعلب البريد وراح يعدو انّه يعرف كيف سيجرّ الثور إلىٰ عرين الأسد، كان ذيل الثعلب يتوهّج في أشعة الغروب عندما لاحت له فرقة خراسان يتقدّمها ألف فارس.

نمّق الثعلب كلمات معسولة أتقنها في الطريق لكأنّه أصبح «دمنة».

همس دمنة وقد غمر الظلام كلّ الأشياء:

ـ أيّها الأمير، أجهدت نفسك، وأسهرت ليلك وأتعبت نهارك، في نصرة مواليك، حتّىٰ إذا استحكم لهم الأمر، وتوطّد لهم السلطان ونلت أُمنيتك فيهم تنصرف علىٰ هذه الحال، فما تقول النّاس؟ ألا تعلم أن ذلك مطعنة عليك، ومسبّة في حياتك وبعد وفاتك؟

قال «شتربه»: انني لا آمنه علىٰ نفسي.

قال «دمنة»: كيف وهل يغدر المرء بأخيه؟

سكت «شتربه» خدعته كلمات معسولة واستشار جنده، قالوا:

ـ لا تذهب.

قال شتربة وقد سقط في بيت العنكبوت:

ـ أخبرني المنجّمون انّني لا أُقتل إلّا بالروم.

فركت العنكبوت يديها، اهتزت الخيوط، لقد سقطت الفريسة إذن وحانت لحظة الانقضاض.

منذ سقوط دمشق وثوب العواصم تتنازعه المدن، ارتدته حرّان أعواماً والكوفة عاماً والأنبار سنين معدودة، حتّىٰ استوى ابن البربرية على العرش، خلعت الأنبار ثوب العواصم فارتدته مدينة «الرومية» مدينة بناها «كسرى أنو شروان» يوم نزلت سورة الروم.

وجاء أبو مسلم حتّىٰ إذا ورد «الرومية» أوجس قلبه خيفة وتذكّر نبوءة المنجّمين، تمتم مع نفسه مطمئناً:

ـ إن معي ألف فارس.

عانق الأسد «شتربه» وقال:

ـ كدت تمضي من قبل أن أراك، وأُفضي إليك بما أُريد فادخل قصرك واخلع عنك ثياب السفر.

وولج الأسد بيت العنكبوت، وجثم حول القصر ألف فارس.

وعندما حانت لحظة الانقضاض قال الأسد لذئابه:

ـ اكمنوا حتّى إذا جاء «شتربه» وصفقت لكم فاخرجوا إليه ومزّقوه.

وهكذا حاكت العنكبوت خيوط بيت واهن.

جاء الرجل الذي بنىٰ مجد غيره على الجماجم، جرّده حارس من السيف، بان الغيظُ على «شتربه» ودخل البلاط غاضباً:

ـ يا أمير المؤمنين لقد أخذوا سيفي.

ـ اجلس لا عليك.

كان الأسد وشتربه وحدهما؛ هكذا تصور الثور المسكين، قال الأسد وقد كشّر عن أنيابه:

ـ ما أردت برحيلك إلى خراسان قبل لقائي؟

قال «شتربه»:

ـ لأنّك وجّهت ورائي إلى الشام من يحصي الغنائم أفلا تثق بي؟

ـ انّني لأعرف ماذا تريد يا خبيث.

قال أبو مسلم مستعطفاً:

ـ يا أمير المؤمنين أنسيت انّني وطّدت لكم الملك؟

قال الأسد بغيظ وحقد:

ـ يابن الخبيثة لقد ارتقيت مرتقىً صعباً، انّني أعرف دسائسك.

انهار «شتربه». عرف أن دمنة قد أوقع به فقال:

ـ لا تدخل علىٰ نفسك الغيظ بسببي فانّي أصغر قدراً من ذلك.

صفّق ابن البربرية فانبرت ذئاب تحمل الموت الأحمر، ألقى أبو مسلم بنفسه على قدم السلطان ولكنّه لم يحصل إلّا علىٰ رفسة قذفته

بعيداً وانقضت الذئاب تمزّقه وشتربه يصيح:

ـ اما من سلاح يحامي به المرء عن نفسه.

ولمّا خمدت أنفاس الثور أمر الأسد أن يلفّوه ببساط.

قال «دمنة»:

ـ والآن أيّها الملك هيّئ ألف صرّة في كلّ صرّة ثلاثة آلاف درهم. وأحدق ألف فارس بالقصر وقد بـرقت السـيوف، فـإذا صرار الدراهم تتساقط من نوافذ القصر ومعها رأس كـان ذات يـوم هـو الرأس، وترجّل الفرسان يجمعون صرار الدراهم فـيما ظـل رأس أبي مسلم يحدّق في الفراغ. فقد غلب بريق الفظة بريق الحديد.

16

المـدينة التي أضاءت العالم منذ قرن بدت حزينة هذه الأيّام، فقد انصرم الشتاء، والغيوم تعبر السماء كسفن تائهة، وتهامس النـاس في المساجد والأسواق وهم يتأمّلون السحب وهي تـتجمّع ثمّ تـتبدّد، تمزّقها الرياح بعنف قبل أن تُغمر الأرض الظامئة بحبّات المطر.

ـ انّه القحط.

ـ أجل القحط.

في مواسم القحط تتغيّر الحياة... وتـنبعث مـن أعـماق النـفوس الآدمية صفات لا عهد للمرء بها، يخرج الخـوف رأسـه، يـطلّ مـن عينين حزينتين، تستيقظ كوامن القلق من المستقبل، يسرع الأثرياء خطاهم إلى الأسواق يشترون ما يحتاجون وما لا يحتاجون، تـرتفع الأسعار، ويتأوّه الفقراء يضربون كفّاً بكف، تتزلزل الثوابت وتغادر البسمات الوجوه، ليضرب الوجوم بكلاكـله الثـقيلة. وربّـما غـامر

بعضهم بالصيد في الفيافي البعيدة بحثاً عن شيء يشبع به صغاره الجياع.

كانوا ينظرون إلى الطيور نظرات طافحة بالحزن، يتمنّون أن يظفروا ببعضها لتنقذهم من عضة الجوع، ان للمدن أعراسها وأحزانها، ويبقى القحط جرحاً غائراً في أعماقها تتذكره دائماً بشيء من المرارة والأسف.

وأصعب ما في القحط أنّه يغيّر طبائع النّاس، يوقظ فيهم غرائز مدفونة في ظلمات ثلاث، فإذا بالإنسان يتحوّل إلىٰ كائن جديد، حيث تخلع المدن الزراعية أثوابها ويتهامس ابناؤها في شؤون الصيد والتجارة.

وفي كلّ ذلك تستيقظ الأنا مدمّرة كوحش كاسر لا يعرف شيئاً غير نفسه.

وفي المدينة كان هناك قلب ينبض بطمأنينة في زمن الخوف، ينبض بالسلام في زمن الرعب، قلب يكاد يستوعب الوجود بأسره.

وفي المساء وقد آبت الكائنات إلى أوكارها، وغمر الظلام الأزقّة، سأل القلب الكبير غلاماً له يدعى معتب:

ـ ألدينا قمح؟

وشعر معتب بالغبطة لأن لديه الوفير:

ـ أجل يا سيدي لدينا ما يكفينا ستة شهور.

وتألّم القلب؛ فالنّاس يعصرها الجوع وحبوب القمح مكدّسة في أكياس القلق والخوف من المستقبل.

ـ اعرضه في السوق يشتريه النّاس.

ـ ونحن يا سيّدي؟!

ـ اشتر لنا شعيراً واخلط به طعامنا فانّي أكره أن نأكل جيّداً ويأكل النّاس رديئاً.

ولمّا اشتدّ الظلام وبدت النجوم ينابيع تتدفّق بالأمل؛ أخذ «الصدّيق» كيساً مليئاً بأرغفة الخبز، كان يجتاز الأزقّة الغارقة في الظلام، حتّىٰ وصل بيوتاً خاوية علىٰ عروشها فيها مساكين عضّهم الجوع فناموا، وراح الرجل الذي يحمل الخبز يضع عند رؤوسهم أرغفة من لباب القمح.

وفي الصباح وجد المساكين أرغفة من قمح طيب، فتبادلوا نظرات تساؤل؛ حتّى إذا ازدادت حيرتهم نظروا إلى السماء الزرقاء وأدركوا أن قلباً يشبه السماء صفاءً وطهراً واتساعاً هو الذي حمل إليهم الخبز والشبع.

والتفت الرجل ذي القلب السماوي إلى غلامه وهو يحمل أكياس القمح إلى السوق:

ـ الحكرة في الخصب أربعون يوماً وفي الشدّة والبلاء ثلاثة أيّام، فما زاد على الأربعين يوماً في الخصب فصاحبه ملعون، وما زاد على ثلاثة أيّام في العسر فصاحبه ملعون.

وانطلق معتب كمن يفرّ من لعنات تلاحقه.

17

تكتسب الأشياء جمالها من أعماق النفس، فهي جميلة أخّاذة حالمة عندما تكون النفس في صفاء مطمئنة آمنة، وربّما بدت ذات الأشياء قلقة خائفة عندما تكون النفس الإنسانية في خوف وقلق، وقد تكون باهتة لا معنىٰ لها بل لا وجود سوىٰ ضبابيات كالحة، عندما تشعر النفس انّها لم تعد ذات قيمة فالرحيل وشيك..

هكذا كانت حالة «المعلّى» ذلك الصباح. كان يسير متعثّراً إلى السوق وقد تأخّر علىٰ غير عادته، اجتاحته رغبة عارمة في الفرار إلى الصحراء، لم تعد الحياة ذات قيمة في زمن الرعب، والسيف الذي قام باسم أبناء عليّ غدا يطاردهم في حاضرة جدّهم، والمعلّى بين نارين، بين أن يتلبّس ثوب. الاسخريوطي فيدلّ على ابن مريم، وبين أن يذوق حرّ السيف الغاشم يبطش به أعوان ابن البربرية الذي

تلقّب بالمنصور.

كان غارقاً في هواجسه فلم ينتبه إلى حفيد محمّد يناديه من قريب:

ـ اغد إلى عِزّك.

قال المعلّى وهو يبثّه لواعجه:

ـ هممت أن أدع السوق.

٢قال الصدّيق:

ـ إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك علىٰ شيء.

ـ يا سيّدي! أُريد أن أتفرّغ للعبادة.

ـ لا تدع التجارة فتهون.. اسع على عيالك وإيّاك أن يكونوا هم السعاة عليك.

شعر المعلّى بالكلمات تنفذ في أعماقه تعيد بناء ما تحطّم فيها من صروح وأعمدة؛ فمضىٰ إلى دكّانه لا يلوي علىٰ شيء.

وشيئاً فشيئاً تناسى المعلّىٰ همومه وقد غمرته ضوضاء السوق، فهناك قافلة كبيرة تريد الانطلاق إلى مصر، فهي تبتاع من أمتعة تحملها إلى شمال أفريقية.

ورأى المعلّى رجلاً يعرفه فناداه من قريب:

ـ يا مصادف!

رفع مصادف رأسه ونظر إلى المنادي وهتف:

ـ هذا ما كنّا نبغي.. أين كنت سائر اليوم؟!

ـ تأخّرت عند السوق على غير عادتي.. ولكن أخبرني ماذا تفعل هنا؟

أجاب مصادف:

ـ أعطاني سيّدي ألف دينار وقال لي: تجهّز حتّى تخرج إلى مصر فإن عيالي قد كثروا؛ واستدرك قائلاً:

ـ أشر عليّ يابن خنيس في المتاع.

وراح المعلّىٰ يرشد مولى الصادق في ما ينبغي له أن يبتاع إلى مصر.

وقبل أن تتوسط الشمس كبد السماء شعر المعلّىٰ بيد غليظة تهزّه بشدّة وصوت فظّ يأمره:

ـ أجب الأمير.

أدرك المعلّىٰ أن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وقد آن له أن يودّع السوق والحياة؛ فمضىٰ مع الشرطي طائعاً إلى حيث يُريد.

قال والي المدينة وهو يلوّح بسوطه مهدّداً:

ـ أعرف انّك تخفيهما عنّي...

أردف بنبرة فيها فحيح الأفاعي:

ـإذا لم تدلّ عليهما فستخرج من هنا دون رأس.

وعرف المعلّى بان رأسه مطلوب منذ أن اختفى محمّد وإبراهيم عن الأنظار، مايزال ابن البربرية يبحث عنهما، ويدسّ كلابه هنا وهناك علّه يعثر عليهما، فالبيعة القديمة ما تزال تؤرقه تُحيل لياليه إلى أرق طويل.

قال المعلّى وقد عرف كيف يربح الصفقة الأخيرة في حياته:

ـوالله لو كانا تحت قميصي ما كشفته عنهما.

صرخ الوالي بقائد الشرطة:

ـماذا تنتظر أيّها الأبله؟.

وهوىٰ سيف غاشم ليطيح برأس هدّته الهموم.

هناك في أعماق الإنسان ما يشبه البركان.. انّه يفور في الأعماق دون أن يشعر به أحد، وربّما انتابت البركان فورة غضب فإذا قشرة الأرض تنفلق وإذا بالحمم تتشظىٰ في الفضاء، هكذا بدا «ابن محمّد» وهو يأخذ طريقه صوب قصر الوالي.

حتّى الشرطة خذلتهم أيديهم وأرجلهم؛ فالبركان الثائر يتقدّم باتجاه الوالي واندفعت الحمم مدمّرة غاضبة:

ـلقد قتلت مولاي وأخذت مالي؛ أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الضيم.

ووجد الوالي نفسه مخذولاً أمام رجل يحمل بين جـوانح صـدره قبساً من ثورة الحسين:

ـ أنا لم أقتله يا أبا عبد الله.. قتله السيرافي قائد شرطتي.. فإن شاء أهل المقتول القصاص فليفعلوا.

وأُقتيد قائد الشرطة مثل كلب ذليل إلى نهايته، كان يصيح يريد أن يدرك أشياء لا يفهمها:

ـ يأمرونني بقتل الناس فاذا قتلتهم قتلوني!!

وتهامس النّاس: لو كان النمرود بلا كلاب بـلا شرطـة مـا قـال لإبراهيم أنا أُحيي وأُميت ولما قال فرعون أنا ربّكم الأعلى.

وعاد البركان إلى بيته، ما يزال الغـضب السماوي مـتفجّراً وليس هناك من شيء يتّسع لعمق الكلمات سوى السماء اللامتناهية، ورفع ابن محمّد يديه يشكو من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وتردّدت في الفضاء دعوات الأنبياء:

ـ اللّهمّ انّي أسألُك بنورك الذي لا يطفىٰ.

وبعزائمك التي لا تخفىٰ.

وبعزّك الذي لا ينقضي وبنعمتك التي لا تُحصىٰ.

وبسلطانك الذي كففت به فرعون عن موسىٰ.

أكفني داود بن علي الساعة الساعة انّك قريب سميع الدعاء.

أضاءت في السماء النجوم؛ تألّقت كقلوب تـنبض بـالأمل.. لقـد استجيبت دعوة العبد الصادق وقد هلك النمـرود؛ وغـرق فـرعون وجنوده؛ وسمعت الصيحة في قصر داود.

18

عادت القافلة وقد فصلت العير عن مصر.. عادت تحمل الربح الوفير، وتحمل من عطور مصر الشيء الكثير.

وكان مصادف يشعر بالفرح فقد نجح في مهمّته وربحت تجارته، وامتزجت فرحته بالربح بفرحة لقاء الأحبّة والديار.

دخل مصادف ووجه يطفح بشراً، كان يحمل كيسين ملئا ذهباً، قال وهو يناولهما سيّده:

ـ هذا رأس المال وهذا ربحه.. لقد ربحت تجارتنا يا سيّدي.

ردّ الإمام مستفهماً:

ـ وكم هما؟

ـ ألفا دينار.

ـ ان هذا الربح لكثير!! ماذا صنعت حتّى ربحت هذا الربح؟!

كان مصادف يتوق إلىٰ هذه اللحظة ليحدّثه عن تفاصيل رحلته إلىٰ مصر فقال:

ـ اشترينا متاعنا من سوق المدينة وكان فيه ما حمله تجّار اليمن ومكّة، وانطلقنا إلىٰ مصر حتّىٰ إذا وصلنا قريباً منها إذا بقافلة من تجّارها تستقبلنا في الطريق؛ وكان المكان محطّة للقوافل، فأناخت النوق؛ تلتقط أنفاسها من رحلة مضنية.

غابت الشمس وتوارت خلف التلال وحلّ الظلام واشتعلت مواقد النّار هنا وهناك في تلك الأرض؛ تساءل تجّار مصر عمّا تحمل قوافلنا من المتاع، حتّىٰ إذا عرفوا ما فيه برقت عيونهم دهشة، فسأل بعضنا عن سرّ دهشتهم فقال أحدهم:

ـ انّه متاع العامّة وليس في مصر منه شيء.

وقال آخر:

ـ ما أوفر حظّكم، أنتم قوم سعداء.

وفي الصباح انفصلت عير مصر، وراح بعضنا ينظر إلى بعض. قال قائل:

ـ لا تبيعوا متاعكم حتّى يربح الدينار ديناراً.

وبرقت العيون اصراراً ولهفة.

شعر الصدّيق بقلبه يتلوّى ألماً فاعتصم بالصمت، فما ظل مصادف

يروي حكايته:

ـ وهكذا دخلنا مصر، فاهتزّ سوقها من أقصاه إلىٰ أقصاه، وأحاطنا التّجار من كلّ صوب، فلم نكن لنساوم علىٰ قيمة المتاع؛ كانوا ينصرفون ثمّ يعودون فلا يجدون سوىٰ الاصرار كانت مقاومتهم تتضاءل شيئاً فشيئاً حتّى سلّموا لنا؛ وهكذا ربح الدينار ديناراً.. فهذه ألف دينار رأس المال وهذه ألف دينار ربحه.

طافت غيمة رمادية جبين وارث النبوّات؛ قال بحزن مرير:

ـ سبحان الله! تتحالفون علىٰ قوم مسلمين ألّا تبيعوهم إلّا ان يربح الدينار ديناراً؟!

أخذ ابن محمّد كيساً واحداً وقال بحزن:

ـ هذا مالنا.. لا حاجة لي بالربح.

أطرق مصادف يفكّر حائراً، وسمع سيّده يقول:

ـ يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال.

تذكّر مصادف أشياء في رحلته لم يكن يأبه لها، تذكّر وميض العيون وهي تبرق طمعاً في الربح الوفير، تذكّر همسات التّجار في قلب الظلام لكأنّهم يتآمرون، تذكّر توسّلات النّاس في أسواق مصر وقد آلمهم ارتفاع السعر؛ تذكّر كل تفاصيل رحلته، وأدرك عندها انّه لم يربح شيئاً سوى لوم سيّده، فألقى نظرة ازدراء علىٰ كيس فيه ألف

دينار ذهبي يخطف بالأبصار.

ودوّت في أعماقه كلمات قالها سيّده ذات يوم:

-كم من طالب للدّنيا لم يدركها ومدرك لها قد فارقها... ما الدّنيا؟ هل الدّنيا إلّا أكل أكلته أو ثوب لبسته؟

ونهض مصادف ينفض عن ثوبه غبار الرحلة ويغسل عن نفسه أدران تجارته؛ وأدرك انّه لم يخسر شيئاً ذا قيمة، بعد أن ربح نفسه التي بين جنبيه.

ولم يكد فجر اليوم التالي ليطلع حتّى كانت الألف دينار تتناثر فوق بيوت الفقراء.

19

مكّة تموج بالحجيج وقد أقبلوا من كلّ فجٍّ عميق، ليشهدوا منافع لهم في أيّام معدودات.

وقد بدا الحجّ ذلك العام عجيباً، فقد جاء رجل يحمل في هيئته ملامح النمرود. فكيف لبّىٰ نداء إبراهيم وجاء؟!

هل جاء ليقول ان النمرود لم يمت بعد، وأن فأس إبراهيم تحطّم أصناماً حجرية، أمّا النمرود فلا، انّه يعرف من أين تؤكل الشاة.

خلع ابن البربرية ثياباً بيضاء ليرتدي حلّته السوداء المخيفة، وارتدى الوزراء أزياءهم المزيّنة بكلّ ما يعرض أُبّهة الملك والصولجان.

وجاء أحدهم يحمل جوهرة نادرة ليست لها في مكّة نظير.

قال الوزير:

ـ انظر يا أمير المؤمنين ما أجملها وأبهاها!

ألقى ذو الرداء الأسود نظرات متفحصة، ومضت في ذهنه ذكريات قديمة، برقت كمن يكتشف شيئاً:

ـ هذا جوهر فاخر انّني أعرفه.

سكت قليلاً وأردف:

ـ انّه لهشام بن عبد الملك، وهو عند ابنه.

قال الوزير:

ـ ولكن لم يبق من أولاده أحد.

ـ كلّا، بقي منهم ابنه الأصغر...

ألقى نظرات ذات مغزىٰ:

ـ انّه في مكّة إذن... لن يفلت من يدي هذه المرّة.

حاكت العنكبوت نسيجاً لبيت واهن:

ـ سوف أُصلّي غداً بالنّاس في المسجد الحرام.. فأغلق الأبواب جميعاً وافتح باباً واحداً فقط... لا تترك أحداً يخرج منه إلّا بعد أن تعرف مَن يكون.

بدت الكعبة وسط الجموع الحائرة سفينة وسط الأمواج البشرية.

حامت أسئلة فوق الرؤوس كأسراب من الغربان التائهة.

قليلون جدّاً هم الذين أدركوا لِمَ أُغلقت الأبواب، وانتشر الحرّاس.

هناك رؤوس مطلوبة إذن، فما زال للشجرة الملعونة أغصان لم تقطع بعد.

تمتم ابن هشام وقد أدرك سوء حظّه:

ـ البعرة تدلّ على البعير والاثر يدلّ على المسير... ليتني لم أبعها في مكّة؛ ولكن ماذا أفعل وقد ضاقت بي السبل. لعن في نفسه معاوية ومرواناً:

ـ ها نحن نجني ما زرعه الأجداد من شجر من زقوم.

كان يهذي مع نفسه كمن أصابه مسّ من الجنون.

كان أخشى ما يخشاه أن يعرفه أحد، كلّ النّاس حاقدون على بني أُميّة وحق لهم ذلك، لقد عاثوا في الأرض الفساد وقهروا العباد وخرّبوا البلاد.

تذكّر ما فعلوه في السنين الخوالي يوم صلبوا زيداً في الكوفة ويحيى في أرض الجوزجان.

شعر بالرعب يخنق أنفاسه وقد قفز قلبه إلى حنجرته وراح يدقّ بعنف كطبل مجنون.

النّاس يخرجون من الباب أفواجاً أفواجاً ولسوف يبقى وحيداً يلوذ هنا وهناك حتّى يمسكوا به كجرذ مذعور.

ارتدى وجهه قناع الخوف حتّى كاد يصيح خذوني.

وجاء رجل من جهة الكعبة يسعىٰ. قال بلطف وقد رأىٰ حيرته:

ـ يا هذا! أراك متحيّراً فمن أنت؟

لم يجد ابن هشام بداً من الاعتراف؛ فلعلّ النجاة في الصدق:

ـ ولي الأمان؟

ـ ولك الأمان.

ـ أنا محمد بن هشام بن عبد الملك؛ فمن أنت؟

ـ محمّد بن زيد بن علي.

وكاد سليل الشجرة الملعونة أن يُغشىٰ عليه من الموت فقال منهاراً:

ـ عند الله أحتسب نفسي.

فقال سليل الحسين:

ـ لا بأس عليك فأنت لست بقاتل زيد ولا في قتلك درك بثأره، سأسعىٰ في خلاصك.

وأطرق مفكّراً وقد ومضت في ذهنه فكرة:

ـ ولكن اعذرني في مكروه أتناولك به وقبيح قول أُخاطبك به يكون فيه خلاصك.

فقال المذعور وقد برقت عيناه أملاً:

ـ افعل ما بدا لك.

قاد العلويّ أُمويّاً من بقايا الشجرة الملعونة إلى زاوية. حانت لحظة العمل، رفع طرفاً من ثوبه وغطّى رأسه ثمّ أمسك به من ياقته وراح يجرّه بعنف إلى الباب حتّىٰ إذا وصل إلى الوزير، وكان منهمكاً في تفحّص الوجوه والأسماء هتف وهو يلطم الأُموي:

ـ يا أبا الفضل انّ هذا الخبيث جمّال من أهل الكوفة أكراني جماله وقد هرب منّي وأكرىٰ جماله بعض قوّاد الخراسانية ولي عليه بذلك بيّنة.

ليس هناك ما يجعل الوزير يرتاب أو يشك، فلم يكن ليخطر على باله أن علويّاً يزخر بالجراح والعذابات يعمل في خلاص أُموي قاتل.

ابتسم الوزير متودّداً وأمر شرطيين باصطحابه عبر الباب.

وشعر الاموى المطلوب بأن ثقلاً ينزاح عن صدره، ولكن ماذا سيفعل هذا العلوي الطيّب مع الشرطيين.

ابتعد الأربعة عن المسجد؛ هتف العلوي وهو يهزّ صاحبه بشدّة:

ـ يا خبيث تؤدي إليّ حقّي؟

قال الرجل المذعور:

ـ نعم يابن رسول الله.

التفت ابن زيد إلى الشرطيين:

ـ عودا إلى الربيع وابلغاه امتناني.

عاد الشرطيان أدراجهما.

كان الأُموي ينظر مشدوهاً إلىٰ رجل من أبناء علي؛ دوّت في أعماقه حقيقة كبرىٰ:

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته.

لم يتمالك الأُموي نفسه فعانق العلويّ وقبّل جبيناً مشرقاً.

دسّ الأُموي يده في جيبه واستخرج جوهرة نادرة وقدّمها إلىٰ رجل أنقذه من موت محتّم:

ـ شرّفني يا سيّدي بقبولها.

قال العلوي وقد تألقت آلاف الفضائل في عينيه:

ـ انّا أهل بيت لا نقبل على المعروف ثمناً.

سكت قليلاً وأردف:

ـ وقد تركت لك ما هو أعظم من هذا دم زيد بن علي؛ فانصرف راشداً... ووار شخصك حتّى يرجع هذا الرجل فانّه مجدّ في طلبك.

وجد الأُموي نفسه عاجزاً عن الكلام، فنظر إليه بامتنان وانصرف.

وافترق الرجلان، فيما ظل «الشيخ» الغارق في السنين والحوادث مشدوهاً.

20

أصبحت المدينة التي كانت مضيئة قبل أكثر من قرن خائفة تترّقب فقد انطوى موسم الحجّ ومضت أيامه المفعمة بالأمن، ليعود الرعب يلقي بكلاكله فوق الأرض.

منذ أعوام، وابن البربرية الذي أضحى ملكاً جبّاراً يبحث عن رجل حسني يحمل اسم النّبي وقلب عليّ، اختفىٰ فجأة ولم يعد له من أثر.

الملك الجبّار يخشى الذي غاب عن الأنظار، وسرت الهمسات في الليالي المظلمة تتحدّث عن محمّد بن عبد الله الذي غاب، ليظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

كانت المدينة خائفة تترقّب فالجبّار قادم إليها وشيكاً. ولم يكن حجّه هذا العام إلّا «مكاءً وتصدية».

الذين يعرفون ابن البربرية في الأيام الخوالي دهشوا لمّا رأوه

غارقاً في أُبّهة الملك، وقد بدا في حلله السوداء جبّاراً في الأرض.

وخيّل «للقرّاء» انّهم يرون النمرود جاء يبحث عن أخٍ لإبراهيم.

حل «النمرود» في المدينة، وغمر الخوف منازلها.

ولكن من أين حصل ابن البربرية علىٰ كلّ هذا الجبروت في الأرض؟!

منذ الأزمنة السحيقة والجبابرة يولدون في النفوس الخائرة.. النفوس التي تسكنها فئران خائفة.

لكأنّهم علىٰ ميعاد مع الشعوب في لحظات الرعب.. الرعب الذي يذرّ قرنيه عندما تستيقظ الغريزة وتغفو الروح ويخبو عنفوانها المتوهج.

وهكذا خلع ابن البربرية رداءه الأصفر ليرتدي السواد من هامته إلى أخمص قدميه، لقد عرف كيف يبني جبروته في النفوس المذعورة.

وجد ابن البربرية نفسه يضحك في أعماقه وهو يتأمّل الحشود تستقبله بابتسامات رسمها التملّق والإملاق؛ تمتم في نفسه:

ـ جوّع كلبك يتبعك..

وأردف ساخراً:

ـ وربّما يعبدك.

وتمرّ الأيّام والحشود لا تنفك تزور الخليفة، تبارك له انتصاراته

السابقة واللاحقة، تساءل بمرارة:

ـ مالي لا أرى «الصادق» أم كان من الغائبين؟!

نظر النمرود إلى وزيره، قال الوزير في خضوع:

ـ أنا آتيك به.

بلع الجبّار ريقه بمرارة، وأقسىٰ شيء علىٰ الجبابرة أن يجدوا بين النّاس من لا يأبه بهم ولا يرهب جبروتهم.

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، فسلّم وجلس، كان ربعة وفي وجهه المضيء خال، ونبع من الطمأنينة يتدفّق في قسماته الهادئة، ينبئ أن القلب يخفق بهدوء وسلام.

ـ أمر عجيب!!!

تساءل الحرّاس وهم يتطلّعون إلىٰ رجل أعزل إلّا من عصا يتوكّأ عليها.

قال ابن البربرية في عتب متكلّف:

ـ لِمَ لا تغشانا كما يغشانا النّاس.

وانقلبت الغين خاءً في آذان المذعورين فبدا لهم أنّهم سمعوا النمرود يقول: لِمَ لا تخشانا كما يخشانا النّاس؟!

قال الرجل الذي يحمل ميراث الأنبياء:

ـ ليس لنا من أمر الدّنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من أمر الآخرة

ما نرجوه منك... لا أنت في نعمة فنهنيك ولا في نقمة فنُعزيك.

أجاب مراوغاً:

ـ تصحبنا لتنصحنا.

قال الصّديق وقد تفجّرت الحكمة من جوانبه:

ـ من أراد الدّنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك.

ساد الوجوم الوجه القاسي، وبذل طاقة جبّارة في دفن أحقاده القديمة.

ونهض حفيد إبراهيم عائداً من حيث أتىٰ بعد أن حطّم بعصاه الوثن البشري.

21

عندما يحطّم الخنزير القابع في الأعماق قيوده وسلاسله، فلن يبقى أمام الإنسان سوى الاختباء بعيداً، لن يبقى منه أثر له سوى أهـاب باهت لصورة بشرية مشوّهة، سوف تفقد العينان صفاءهما الفطري ليحلّ مكانهما بريق مخيف وسوف يتخلّى القلب عن دفئه ليتحوّل إلىٰ كتلة من الرصاص.

لقد تحوّل «ابن البربرية» إلىٰ وحش كاسر يدمّر كلّ من يقف في طريقه.

المدينة ما تزال خائفة تترقّب، فالجبّار لما يزل يبحث عن محمّد بن عبد الله وعن أخيه؛ وقد أعيا الكلاب البحث عنهما.

انطوىٰ ثلث من الليل، الشرطة تجوب الأزقّة وتقتحم مـنازل لم تغف بعد.

اشتدت ظلمة الليل وبدت النجوم عـيوناً تـرقب مـا يجـري في

الأرض المظلمة حتّى إذا طلع الفجر جاءت الكلاب مسعورة تنبح ثمانية رجال، سبعة شباب وشيخاً طاعناً في السنّ.

وقف النمرود يستعرض اسراه بغيظ.

هتف الشيخ ببسالة:

ـ ما هكذا عاملنا اسراكم يوم بدر.

برقت في الذاكرة بيعة قديمة، ماتزال تطارده تقضّ مضجعه، تسلب من عينيه حلاوة النوم، تتحوّل إلى كابوس يطارده عبر اللّيالي.

أشرقت الشمس... غمرت المدينة بالأضواء وسرى دفء ناعم في البيوت؛ وقد أزفت ساعة الرحيل، الظلّ الثقيل ينحسر عن المدينة، غير أنّه سرق معه الشمس فالمدينة زمهرير.

وتهامس النّاس بأخبار مقلقة. لقد أخذ الجبّار معه ثمانية من ذرّية الحسن، ورجلاً من ذرّية الحسين.

عبر الركب أرض الحجاز متوغّلاً في الصحراء من تخوم العراق.

وفي واحة على الطريق وقد غمر الظلام صعيد الأرض وأضنى المسافرين السفر، تسلّل فارسان كانا يتبعان ركباً فيه أبوهما وأبناء عمومتهما.

زحفا في الظلام بين حنايا الرمال الناعمة إلىٰ حيث حشر ثمانية

رجال من ذريّة الحسن، كان همّ محمّد وإبراهيم إنقاذ أبيهما، همس محمّد وقد آلمه منظر أبيه وهو ينوء بالسلاسل وبثمانين من السنين:

ـ يا أبتِ! يقتل رجلان من آل محمّد خير من أن يُقتل ثمانية..

أجاب الشيخ وقد اشتعلت في أعماقه ثورة:

ـ انّ منعكما الجبّار أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.

ليس هناك من خيار سوى الثورة، انّها ميراث الحسين إلىٰ أبناء أخيه.

لقد وجد ابن البربرية نفسه فجأة فوق العرش، فنظر إلى الحضيض الذي كان يزحف فيه فرآه هاوية سحيقة مالها من قرار.. من أجل هذا راح يتشبّث بالعرش بالصولجان، ورأى نفسه إذا سعل اهتزّ القصر ومادت الأرض بأهلها، فقال وقد نفخ الشيطان في روعه:

ـ انّما أنا سلطان الله في الأرض.

وجاءت الكلمات تنضح علوّاً في الأرض وفساداً لكأنّها أصداء بعيدة لكلمات قيلت قبل عشرات القرون في «منف» عندما صدح «منفتاح» على شطآن النيل:

ـ أنا ربّكم الأعلى.

ويوم قال النمرود في بابل:

ـ أنا أُحيي وأُميت.

وصل الركب قرية صغيرة تدعى «بغداد»، حيث يمرق دجلة تتدافع أمواجه كشريط من التاريخ؛ في الأرض التي نبتت فيها النخيل كرموش حورية غافية؛ عندما يصبّ نهرا «بطاطيا» و «الصراة».

وهكذا ومضت في ذهن النمرود أن يبني جنّته، ستكون لها أسوار شاهقة وأبواب وبروج مشيّدة.

22

استيقظت قرية صغيرة على شاطئ «دجـلة» حـيث يـلتقي نهـر «الصراة» لتجد نفسها في قلب التاريخ.

وشهــدت الأرض المكــتظّة بـالنخيل آلاف العـمّال والبـنائين والمهندسين، لقد ولدت العاصمة بغداد.

كان الحجّاج بن ارطاة، يحمل في رأسه أجمل مدن الشرق.

أحضر آلاف العمّال كرات من القطن المنقوع بالنفط لترسم دائرة كبيرة يمتد محيطها إلى أكثر من عشرة آلاف ياردة، وفي لحظة واحدة شبّت النار في الكرات لترسم دائرة من نار ودخان.

كان «النمرود» يراقب باستمتاع اشـتعال النّـار حـيث سـتنهض الأسوار العالية.

أشار كبير المهندسين إلى مركز الدائرة:

ـ وهنا سينهض قـصر الذهب؛ ليكـون الخـليفة قـطب الدائـرة

ومركزها.

واتّخذ النمرود مجلساً يطلّ على المكان، فكان يراقب السفن وهي تحمل حزم القصب والبردي؛ والعمّال وهم يحفرون خندقاً دائرياً يحيط بالسور وقد تركت أربعة معابر تؤدي إلىٰ بوابات المدينة الأربع.

ثلاثة أشياء ومضت في ذهن النمرود وهو يبني جنّته علىٰ شطآن دجلة:

أن يُبنى سجن كبير نصفه في الأرض ونصفه الآخر في الفضاء وأن يكون قريباً من القصر.

أن يحفر نفق طويل يمتد من القصر إلى خارج الأسوار.

أن تكون الأسواق خارج المدينة.

أدرك كبير المهندسين نوايا النمرود، فالفصول القادمة فصول تزخر بالدماء وجماجم الضحايا وأنّات السجناء.

وسيكون النفق السّري الذي يمتد اثني عشر ميلاً عربياً منفذاً للفرار عندما ينقلب على الساحر سحره.

ولم يخف على الحجّاج بن ارطاة كبير المهندسين غاية الخليفة من إصراره على بناء الأسواق خارج المدينة، فقبل عشرين سنة كان رجال يرتدون هيئة التّجار يجوسون خلال المدن من «الحميمة» إلى

الأرض التي تطلع منها الشمس.

كانوا يرتادون الأسواق ويتظاهرون بالبيع وبالشراء، ولكنّهم كانوا يتعاطون تجارة سرّية بضائعها كلمات ورموز. لهذا خشي النمرود أن يأتي «تجّار» آخرون.

جنحت الشمس للمغيب وانطلق كبير المهندسين إلى مكانه المفضّل في ربوة عالية على شاطئ دجلة من جهة الشمال، وراح يراقب الامتداد الرشيق لجبهة النهر، فتخيّل انبعاث المنائر والقباب تغمرها أشعة شمس الغروب.

كان يعرف ان مشكلته تكمن في عقلية هذا الحاكم الذي لا يحمل عن المدينة صورة سوى أن تكون معسكراً كبيراً له ولجنوده، فالقصر قلعة قويّة والنفق السّري شريان حياة، والأسوار العالية بروج مشيّدة علّها تصدّ عنه حملات الموت.

حتّى القبّة التي ستعلو القصر، سيعلوها فارس بيده رمح طويل!

غابت الشمس؛ توارت خلف ذرى النخيل، فبدت متّقدة بلون يشبه توهج الجمر في مواقد الشتاء.

عاد كبير المهندسين وهو يفكّر فيما يتوجّب فعله في صباح غد.

23

مسجد الكوفة يموج بالناس والأخبار؛ الجموع تملأ فناء المسجد وقد تشكّلت حلقات ودوائر، اختلطت الأصوات فلا يسمع المرء سوىٰ همهمة بشرية، وقد زخر الفضاء بمختلف الأصوات، وبدا المسجد جامعة كبرىٰ.

في وسط الضجّة كان النّاس يصغون إلى أخبار المدن البعيدة، قُتل محمّد عند «أحجار الزيت» على مشارف «المدينة المنوّرة» وتألقت في الأذهان نبوءات قديمة عن نفس زكيّة يراق دمها في أحجار الزيت. وقد شبّت نار الثورة في البصرة، أشعلها شقيق له يدعى «إبراهيم» ولكن رياح القدر كانت تعصف بعنف وسقط الفارس في «باخمرى» على بعد ثلاثين ميلاً جنوب الكوفة.

وشعر النمرود بالارتياح فانطلق إلى «بغداد» الصبية الجميلة التي تغتسل علىٰ شواطئ دجلة.

شعر النمرود أن رأسه فارغ من الهموم، فلقد ابتلعت الأرض خصمين لدودين طالما أرّقاه في الليالي.

بدت بغداد من بعيد جنّته الموعودة، وضاعفت أُبّهة الملك وحشود الجنود والحرّاس من شعوره بأهميته، وكاد أن يهتف وسط الجموع:

ـ أنا ربّكم الأعلىٰ.

ولكنه استدرك ذلك فقال:

ـ إنّما أنا سلطان الله في الأرض.

وخشعت أبصار الذين أشركوا.

استقل «النمرود» زورقاً ملكيّاً وقد بدت شطآن دجلة المكتظة بباسقات النخيل كرموش صبية استيقظت توّاً من النوم. وشعر النمرود بنشوة حالمة «ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه» قال: «ما أظن أن تبيد هذه أبداً» «وما أظن الساعة قائمة».

رسى القارب في مرفأ هادئ؛ وكانت بعض القوارب الصغيرة تنقل آخر هبات هذه الأرض من لباب القمح، كانت الأسوار قد نهضت قليلاً، وكان عمّال البناء ينوءون بحمل لبنات مكعبة الشكل تزن الواحدة منها مئتي رطل، وكان أبو حنيفة منهمكاً في ضرب اللبن وعدّه، فلأن يحمل أسوار بغداد على ظهره أيسر من نهوضه

بالقضاء.

كان قصر الذهب الذي يتوسّط المدينة قد أوشك على الانتهاء، وقد بدا بقبّته الخضراء كائناً خرافياً انشقت عنه الأرض.

أشار كبير المهندسين إلى تمثال فارس يحمل رمحاً طويلاً يتربّع فوق القبّة كأنّه يشير إلىٰ جهة من الجهات.

أبدى النمرود دهشته عندما عرف أن هذا التمثال يدور حول محوره فيشير برمحه إلى جهة ما..

كان الخليفة يحاول إخفاء رغبته بتفقّد السجن الذي يقع إلى الجنوب من القصر، وأدرك المهندس رغبة الخليفة فتقدّم في «سكّة» تؤدي إلى «المطبق».

نزل الخليفة عدّة درجات في سلّم ضيّق نحو الأعماق المظلمة.

أخفقت المشاعل في تبديد الظلمة الرهيبة، كانت الأقبية والزنازين والدهاليز غارقة تماماً في الظلام؛ وكان الخليفة يتفقّد المكان باهتمام فاق اهتمامه بالقصر والمدينة وحتّى الأسوار.

بدا المطبق في تلك الساعة وحشاً مخيفاً يتربّص بضحاياه.

مرّ الزمن بطيئاً كسلحفاة كسول، والخليفة يتفقّد الأنفاق الغارقة في الظلام.

توقّف أمام زنزانة منفردة تشبه بئراً محفوراً في سرداب.

كانت المشاعل ما تزال تتوهّج تحاول أن تبدّد ظلمات تتراكم بعضها فوق بعض؛ بدت ظلال الخليفة والحرّاس الغلاظ مردة تتراقص على الجدران الصخرية القاسية.

اكتمل حفر الخندق الذي يحيط بالمدينة، وأضحى مستعداً لاستقبال مياه الفرات المتدافعة عبر قناة «كرخايا».

كلّ شيء يمضي على ما يرام وقد ولدت غانية الشرق.

24

من أصعب الأشياء أن يروّض المرء وحشاً مسّه طائف من الجنّ! لقد استيقظ الخنزير القابع في الأعماق المظلمة وفرّ الإنسان بعيداً يلوذ في الكهوف والمغارات.

جيوش النمرود تحصد الرؤوس في باخمرى، والمدينة تصادر البيوت والمنازل والضياع. وكانت الأوامر تقضي بإحضار كلّ من بلغ الحلم من أبناء عليّ وفاطمة.

كانت الكوفة تترقّب مذبحة كبرىٰ؛ فالنمرود يبني مجده علىٰ جماجم الضحايا وقضم العظام الآدمية.

وتمرّ الأيّام مريرة قلقة مدمّرة حتّىٰ إذا أطلّ محرّم الحرام من سنة ١٤٦ تحفّز الخنزير للفتك، وخرج الحاجب يهتف بأبناء عليّ وقد جيء بهم من المدينة:

ـ أين هؤلاء العلويّة؟

وأردف وهو يستعرض عشرات الوجوه:

ـ ليدخل من ينوب عنكم على أمير المؤمنين.

مرّت لحظات؛ كان الصمت يهيمن على المكان.

نهض رجل قد ذرّف علىٰ الستّين؛ كان يتوكّأ علىٰ عصا، في عينيه بريق لنبوّات غابرة، لكأنّه موسى قد جاء إلى فرعون انّه طغىٰ.

هتف النمرود بحقد:

ـ أأنت الذي يعلم الغيب؟

أجاب الشيخ بوقار ورثه عن أبيه محمّد:

ـ لا يعلم الغيب إلّا الله.

صرّ النمرود على أسنانه:

ـ أنت الذي يجبى إليه الخراج؟

أجاب الشيخ وهو يحاول ترويض الوحش:

ـ بل إليك يا أمير المؤمنين.

سكت النمرود وقد ومضت في رأسه فكرة شيطانية؛ قال باستعلاء:

ـ أتدرون لِمَ أحضرتكم؟

ـ ...

ـ أردت أن أهدم ربوعكم وأروّع قلوبكم وأعقر نخلكم

وأترككم بالسراة.. لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهـل العـراق فانّهم لكم مفسدة!

أجاب الشيخ وقد عرف كيف يهدّئ من جنون الوحش:

ـ يا أمير المؤمنين ! ان سليمان أُعـطي فشكـر، وإنّ أيـوب ابـتُلي فصبر، وان يوسف ظُلِمَ فغفر، فاقتد بأيّهم شئت.

هدأ الخنزير قليلاً، تمدّد قليلاً وأخرج الإنسان رأسه من الكهف:

ـ أعد عليّ ما قلت!

ـ انّ سليمان أُعطي فشكر، وان أيّوب أُبتلي فـصبر، وان يـوسف ظُلِمَ فغفر.

هتف الخليفة مأخوذاً:

ـ مثلك فليكن زعيم القوم لقد عفوت عنكم.

غمر الصمت المكان؛ وخرج الإنسان من أعماق الكهف بـعد أن غط الخنزير في نوم عميق:

ـ حدّثني الحديث الذي حدّثته عن آبائك عن رسول الله ﷺ ؟

قاد الشيخ الإنسان الخائف الى بقعة يغمرها الضوء:

ـ حدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عن رسول الله ﷺ قال: «صلة الرحم تعمّر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفّاراً».

شعر الإنسان بالدفء فالتمس المزيد:

ـ ليس هذا أعني.

ـ حدّثني أبي عن آبائه عن علي عن رسول الله(صلَّى الله عليه وآله) قال: «الأرحام معلّقة بالعرش تنادي: اللّهمّ صل من وصلني واقطع من قطعني».

ـ ليس هذا أعني.

ـ حدّثني أبي عن آبائه.. عن رسول الله(صلَّى الله عليه وآله): «ان الله عزّوجلّ يقول: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن بتها بتته»».

ـ ليس هذا.

ـ حدّثني أبي... : «انّ ملكاً من الملوك كان بقي من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه فجعلها الله ثلاثين سنة»».

استلقىٰ الإنسان في غمرة الضوء والدفء وهتف بارتياح:

ـ هذا ما أردته.. أي البلاد أحبّ إليك؟ فوالله لأصلنّ رحمي.

هتف الشيخ وقد خفق قلبه لموطن آبائه:

ـ المدينة.

وعاد الخائفون إلىٰ ديارهم وكفى الله المؤمنين القتال؛ والذين شهدوا اللقاء حيّرتهم ابتسامة الوحش؛ منذ أعوام وهم لا يرون غير أنياب مكشّرة تُريد قضم المزيد من العظام الآدمية.

25

وقف أبو حنيفة ينتظر الإذن بالدخول؛ ولكن دون جدوى؛ غير ان النعمان يدرك أي نبع من العلم يتدفّق خلف الحجرات، وأيّ كوكب درّي يغمر بنوره ما بين الخافقين؛ لهذا وقف ينتظر باصرار رغم حرارة الجوّ في هذا القيظ اللاهب، وجاء رجال من الكوفة فدخلوا ودخل أبو حنيفة؛ واستقر المجلس بالوافدين.

حاول النّعمان أن يعدّل من جلسته، ولكنّه وجد نفسه يجلس كتلميذ في حضرة معلّمه، ووجد نفسه ينظر مشدوهاً إلى رجل من آل محمّد.

تساءل عن بواعث هذه الهيبة التي تعتريه لهذا الشيخ! لقد قابل الخلفاء والأمراء وواجه المنصور فلم يشعر بقيد أُغلة من ذلك، ترىٰ من أين يستمد جعفر كلّ هذا الجلال؟!

وكاد أبو حنيفة أن ينسى الأمر الذي جاء من أجله. هناك في

الكوفة من يشتم الصحابة، وهو لا يتحمّل ذلك أبداً.

لملم ثوبه متحفّزاً للحديث وكان المجلس خاشعاً في حضرة الصدّيق جعفر.

قال النّعمان بأدب:

ـ يابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله، فانّي تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم!

قال الصدّيق:

ـ انّهم لا يقبلون منّي.

هتف النّعمان:

ـ ومَن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله؟!

قال ابن محمّد:

ـ أنت أوّلهم؛ دخلت بغير إذني وجلست بغير أمري وتكلّمت بغير رأيي، وقد بلغني أنّك تقول بالقياس؟

أجاب النعمان مؤكّداً:

ـ نعم؛ أقول به.

ـ ويحك يا نعمان أوّل من قاس إبليس حين أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى، وقال: «خلقتني من نار وخلقته من طين».

وبدا النّعمان متحفّزاً للدفاع عن مذهبه.

سأل الصدّيق صاحبه وهو يحاوره:

ـ أيّهما أكبر يا نعمان القتل أم الزنا؟

ـ القتل.

ـ فلِمَ جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أيُقاس لك هذا؟

ـ لا.

ـ فأيّهما أكبر البول أم المني؟

ـ البول.

ـ فلماذا أمر في البول بالوضوء وأمر في المني بالغُسل. أيقاس لك هذا؟

ـ لا.

ـ أيّهما أكبر الصلاة أم الصوم.

ـ الصلاة.

ـ فلِمَ وجب على الحائض ان تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أيقاس ذلك؟

ـ لا.

ـ فأيّهما أضعف الرجل أم المرأة؟

ـ المرأة.

ـ فلِمَ جعل الله للرجل سهمين في الميراث وللمرأة سهم؟ أيقاس ذلك؟

ـ لا.

كانت الحقائق تشرق وكانت الأباطيل تتبدّد كضباب في ضوء الشمس.

الصمت يغمر المكان بالجلال، دخل خادم يحمل طبقاً مليئاً بالرطب، ثمّ أسرع بالخروج ليحضر الماء.

سأل الإمام صاحبه:

ـ وقد بلغني أنّك تقرأ آية من كتاب الله «ثمّ لتسألنّ يومئذٍ عن النعيم» وتقول: انّه الرطب والماء البارد في اليوم الصائف.

ـ نعم.

ـ لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ثمّ امتنّ عليك ما كنت تنسب إليه؟

أطرق النعمان وقال مهزوماً:

ـ البخل.

تساءل الصدّيق:

ـ أفبخل علينا.

بدت ملامح الحيرة على وجه النعمان فتساءل عن النعيم:

ـ فما هو إذن؟!

ـ حبّنا أهل البيت.

وطافت في فضاء الحجرة الطينية آية مفعمة بالجلال: «انّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا».

وامتدت الأيدي إلى رطب جني، وإلى مياه باردة، وقال رجل من أهل البيت وهو يرفع يديه حمداً:

ـ اللّهمّ هذا منك ومن رسولك.

هتف النّعمان ملدوغاً:

ـ يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكاً؟

وتمتم ابن رسول السماء بآية:

ـ «وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله».

وشعر أبو حنيفة بدويّ الإنهيارات في أعماقه، انّه في حضرة رجل ليس على وجه الأرض نظير له، وانبثق عزم في نفسه على أن يتتلمذ علىٰ يديه وينهل من فيض علمه، فالنعمان لم يزل في أوّل الطريق.

26

مياه دجلة تتدافع بانتظام يشبه تتابع لحظات الزمان؛ ونسائم منعشة تهبّ من ناحية الشاطئ تداعب سعفات النخيل، وكان ضوء البدر ينعكس على صفحة المياه المتكسّرة.

أوى أهل القصر إلى النوم وانطفأت بعض القناديل؛ فيما ظلّت مشاعل الحرّاس تتوهّج في الأبواب العالية.

انتصف الليل وأخفق الظلام في قهر الأرق الذي داهم «النمرود»، بدا السرير الوثير في عينيه تابوتاً، فوثب كأنّه يفرّ من الموت.

استخرج مفاتيح يحتفظ بها في مخبأ سرّي، وغادر الغرفة، ولم ينس أن يحمل معه قنديلاً فضيّاً، اجتاز بعض الأروقة منحرفاً باتجاه الشمال؛ توقف أمام باب حديدي له قضبان يشبه أبواب الزنازين؛ أدار المفتاح في القفل ودفع الباب إلى الداخل، نزل عدّة درجات في سلّم ملتوٍ.

كانت الظلمة متكاثفة والقنديل يرسم دائرة من الضوء صغيرة.

وضع القنديل علىٰ رخامة داخل القبو، وقد ظهرت عدّة أبـواب حديدية صغيرة متباعدة.

فتح أحد الأبواب، ظهرت آلاف الصرار المليئة بـدنانير الذهب، وكانت الجواهر منضودة علىٰ رفوف من الرخام، مرّ بيده علىٰ صرار الذهب، لكأنّه يتمسّح ببريقه الذي يخطف الأبصار؛ يستمد منه العزم والقوّة والسلطان، لا أحد يعرف كم هي سواه، فيها أربعة عشر ألف ألف دينار من ذهب، وفيها ستمئة ألف ألف درهم من فضة.

انسل خارج الخـزانة وأعاد إغلاق الباب بـعناية، فـهنا يسكـن المارد الاصفر.

وقف أمام باب آخر وتردّد في فتحه؛ ولكنّه وجد نفسه آخر الأمر يدير المفتاح في القفل، وصدر صوت ينمّ عن انـفتاح البـاب. سـقط ضوء القنديل على منظر رهيب.

كانت رائحة الكافور تملأ المكان، وكانت رؤوس آدمية في مختلف الأعمار، بعضها مغمّض العينين وبـعضها يحـدّق في الفـراغ، لكأنّهـا تبحث عن القاتل.

وكانت هناك رقاع تتدلّىٰ من آذان القتلىٰ فيها أنسابهم وأعمارهم.

رغبة عارمة اجتاحته لأن يُلقي نظرة إلى رأس محمّد بن عبد الله،

اقترب أكثر حتّى أصبح الرأس في دائرة الضوء تماماً، بدا الرأس غافياً وكانت رقعة كبيرة تتدلّىٰ من أذنه اليمنىٰ؛ لم يجد صعوبة في قراءة الكلمات لأنّه كان قد كتبها بنفسه: محمّد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب من ذرّية فاطمة بنت رسول الله، ولد على رأس مئة من الهجرة، قتل في أحجار الزيت، وعمره خمس وأربعون سنة، وكان مقتله لخمس بقين من رجب.

ومضت في ذاكرته حوادث ما تزال متوهجة ببريق عجيب رغم مرور عشرين سنة.

تذكّر تلك اللحظة التي شدّ فيها علىٰ يد محمّد يبايعه على الثورة، وقد دوّى حديث نقله الرواة: «انّ المهدي من ذرّيتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي».

تذكّر جعفر بن محمّد ذلك الصدّيق كيف رفض البيعة قائلاً: انّه ليس بالمهدي، وانّه المقتول في أحجار الزيت، يقتله ذو الرداء الأصفر؛ همس صاحب الرداء الأصفر وقد صبغ رداءه بالسواد مبهوراً:

ـ جعفر أيّها الصدّيق لست نبيّاً فمن أنبأك بهذا؟!

ولو أرهف اذنه لسمع كلمات تُجيب:

ـ أنا فرع من تلك الزيتونة.

كان منظر رأس إبراهيم إلى جانب رأس أخيه يثير الحزن؛ يفجّر الصخر.

أفلتت دمعة من الإنسان على الرغم من إرادة النمرود.

وكانت رقعة من الاذن تقول:

إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من ذرّية فاطمة بنت رسول الله. ولد سنة ٩٧ للهجرة. قتل في قرية باخمرى القريبة من الكوفة. وكان مقتله لخمس بقين من ذي القعدة وله من العمر ثمانية وأربعون سنة.

أطال النظر إلى عيني إبراهيم، لقد كاد هذا العلوي أن يعصف بملكه وهو يهزم الجيوش العبّاسية في البصرة وباخمرى.

هاهو الآن مجرّد رأس في قبو تتراكم فيه الظلمات.

حانت منه التفاتة إلىٰ رؤوس صغيرة لأطفال في عمر الزهور، ماتزال عيونهم تحدّق... تستفهم التاريخ.

ارتاع النمرود في أعماقه؛ هل كان عليه أن يحصد كلّ هذه الرؤوس الصغيرة والكبيرة من أجل تثبيت دعائم عرشه؟ هل كان يبحث عن المهدي من ذرّية فاطمة قبل ظهوره كما فعل فرعون قبل آلاف السنين يوم كان يبحث عن موسىٰ فامتلأت خزائنه بجماجم الأطفال؟

27

هل حطّمت الشياطين أصفادها والأغلال فانطلقت تعربد وتدمّر وتجدّف بكلمة الكفر.

خلع «االمـفضل» نعليه وقد ولج البـقعة المـقدّسة بـين «القـبر» و «المنبر»، جلس يـتأمّل، فـلعل نـفسه تسـتعيد طـمأنينتها في هـذه الروضة.

كانت شمس الأصيل تتهادى في الأُفق وترسل أشعتهـا الذهـبية عبر الكوىٰ والنوافذ فتملأ مسجد النّبي بالنور والسكينة والجلال.

امتعض «ابن المفضل» وهو يرىٰ رجلاً يقتحم تلك السكينة؛ ليس هناك من لا يعرف «ابن أبي العوجاء».

تساءل ابن المفضّل وهو يراقب الرجل وقد اتّخذ مجلسه قريباً.

كادت السكينة تعود مرّة أُخرى إلى المكان لولا رجل آخر يلج المسجد ويتّجه صوب ابن أبي العوجاء، ويجلس في حضرته جلسة

المريد في حضرة الساحر، وجد المفضّل نفسه يصغي إلى حديث الرجلين، قال ابن أبي العوجاء وهو ينظر إلى قبر آخر الأنبياء:

ـ لقد بلغ صاحب هذا القبر ذروة المجد.

اجاب صاحبه:

ـ كان ولا شك فيلسوفاً ادّعى المنزلة الكبرىٰ، وجاء بالمعجزات العظمىٰ فبهر بذلك العقول، فلمّا دخل الناس في دينه أفواجاً قرن اسمه باسم ناموسه، فإذا اسمه يتردّد في كلّ بقاع الدّنيا في كلّ يوم خمس مرّات.

أمسك ابن أبي العوجاء خيط الحديث:

ـ دع ذكر محمّد فقد تحيّر فيه عقلي وحدّثني في الأصل الذي يمشي به، وليس هناك من أصل، فالأشياء موجودة هكذا منذ الأزل لا صنعة فيها ولا تقدير ولا صانع ولا مدبّر، وعلىٰ هذا كانت الدّنيا ولم تزل وما تزال وما يهلكنا إلّا الدهر.

لم يتحمّل المفضّل أكثر من هذا، انفجر في أعماقه بركان هائل، ووجد نفسه ينتفض وقد امتلكته ثورة الغضب:

ـ يا عدوّ الله ألحدت في دين الله وأنكرت الذي برأك فسوّاك فخلقك.

رمق ابن أبي العوجاء الرجل الثائر باستخفاف:

ـ يا هذا ان كنت من أهل الكلام كلّمناك، وإن كنت من أصحاب جعفر الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولقد سمع منّا أكثر ممّا سمعت فما أفحش في خطابنا.

التزم ابن المفضّل جانب الصمت وغادر المكان إلىٰ خارج المسجد، وهمس بحزن:

ـ انّهم يلحدون حتّى في بيوت الله.

كان المفضّل يسير غير ملتفت إلىٰ شيء، قد أضحت المرئيات أمام عينيه سراباً، قدماه تقوادنه إلى منزل رجل ذرّف على الستين، رجل تحاصره الذئاب من كلّ صوب، وتنفخ علىٰ نوره الأفواه المتحلّبة من لحوم الأنبياء تريد إطفاء جذوة تستمد وهجها من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية.

سأل سليل النبوّات وقد رأى علىٰ سيماء صاحبه امارات حزن عميق:

ـ ما بك يا مفضّل؟

أجاب وقد شعر بروحه تغتسل في نبع بارد:

ـ يؤلمني يا سيدي كفر هؤلاء الدهريين.. ابن أبي العوجاء وأصحابه..

ـ لا تغتمّ يا مفضّل، لكل أجل كتاب.. لألقينّ عليك من حكمة

الباري في خلق العالم والسباع والطير والهوام وكلّ ذي روح من الأنعام والنبات ومن الشجر المثمر وغير ذات الثمر والحبوب والبقول المأكول من ذلك وغير المأكول، ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون ويتحيرّ فيه الملحدون، فبكّر عليَّ غداً.

هتف المفضّل وقد غمرته الفرحة:

ـ أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه؟

ـ افعل يا مفضّل، الحمد لله الذي لم يخرجني من الدّنيا حتّى بيّنت للنّاس جميع ما تحتاج إليه.

حتّى إذا مرّت أربعة أيّام، ولد كتاب تشهد فيه الكائنات أن لا إله إلّا الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى.

28

تكاثفت الظلمات فوق الأرض، تراكمت بعضها فوق بعض، وبدت النجوم في أغوارها البعيدة عيوناً تبحلق في قلب اللّيل.

لم يأو «النمرود» إلى فراشه تلك الليلة، بدا مهموماً، عيناه الحمراوان تشتعلان ببريق مخيف؛ الحرّاس الذين رأوه في الشرفة ظنّوا ان حملات الخزر واجتياحهم تفليس في أرمينيا وسبيهم المسلمين قد أقضّت مضجعه، أو ربّما أقلقه خلع ابن أخيه عيسىٰ بن موسى من ولاية العهد وعقدها لابنه محمّد، وربّما فكّر في القلاقل التي حدثت في «أفريقيا» وتمرّد الجند في تلك الأصقاع.

ولكن الحقيقة غير ذلك؛ لأنّ النمرود لا يفكّر في مثل هذه الأُمور، وحتّى لو فكّر فيها فلن يسهر اللّيل من أجلها، لقد دانت له الدّنيا بأسرها، وخضت له العباد والبلاد، ان ما يؤرقه هو رجل واحد ما يزال يقاوم، ما يزال يتحدّى، وأصعب شيء على الطاغية أن يرى أُمّة

بأسرها تركع ما خلا رجل واحد يرفع جبينه عالياً حتّى ليكاد يلامس الشمس.

انّه لا يكاد يُحصي عدد المرّات التي أراد فيها قتله والتخلّص منه، هاهي خزائن قصره تزخر بجماجم الكثيرين من العلويين، أمّا جعفر فقد أخفق السيف مرّات ومرّات... وقف أمامه عاجزاً، لقد مرّت عشرة أعوام على حكمه وتساقطت الرؤوس بالعشرات. وفي كلّ مرة أراد قتله فيها يتراجع في آخر لحظة. ترى ما هو السرّ في ذلك؟!

ومضت في ذاكرته حادثة بعيدة يوم أرسل إلى واليه على المدينة وأمره فيها أن يحرق عليه المنزل.

كانت خطّة محكمة؛ فقد اشتعلت الحرائق في منتصف الليل وحاصرت النيران المنزل ولم يعد هناك طريق للنجاة؛ ولكن ماذا حصل؟ لقد شاهده الجلاوزة جميعاً يخرج سليماً يخترق ألسنة النّار المجنونة ويهتف:

ـ أنا ابن أعراق الثرى! أنا ابن إبراهيم خليل الله.

لشدّ ما يمقت هذا الشيخ العلوي، انّه يبني مجده في القلوب، يذكره النّاس في كلّ مكان فيذكرون فيه أشياء جميلة، يقصده الناس من كلّ حدب وصوب؛ يحجّون إليه كما يحجّون إلى البيت العتيق.

شعر النمرود بضآلته وهو يفكّر باغتياله بالسمّ، كان يودّ الإطاحة

برأسه، لكي يستمتع بدويّ الإنهيار، أمّا سلاح معاوية ففيه جبن لا يستسيغه ولا ينسجم مع نفسيته؛ ولكن ما الحيلة وهو يخفق المرّة بعد الأُخرىٰ، عليه أن يسرع وإلّا فات الأوان.

وفي قلب الليل انفتحت البوابة الجنوبية لبغداد، وخرج فارس ملثّم يحمل معه صندوقاً يحوي مادة مستوردة من عاصمة الروم.. مادّة كان يستوردها معاوية ويدوفها مع العسل، فيدسّها إلى من يشاء ويطلب من أهل الشام أن يؤمّنوا وهو يدعو على خصومه بالموت.

وأوى النمرود إلى فراشه، في الهزيع الأخير من الليل. كانت النجوم تشتدّ سطوعاً والليل يشتدّ ظلمة، ورأى النمرود نفسه في عوالم الطيف يغرق في عين تفور دماً عبيطاً، وكان صدره يضيق ويضيق، وكان يتشبّث باحثاً عن منفذ للخلاص ولكن دون جدوىٰ، ودوّت صرخات استغاثة يائسة فهبّ من فراشه مذعوراً وكانت النجوم ما تزال تسطع في الظلام.

29

كان شوّال من ذلك العام حزيناً، وقد انطوى عيد الفطر وانطوت معه فرحة الصائمين.

رياح شباط الباردة تجوس أزقّة المدينة، والسحب الداكنة تسدّ الأُفق حيث تغيب الشمس. وفي منزل تظلّله سعفات النخيل كان الحزن قد رمىٰ بكلاكله كغراب جاثم.

الشيخ الذي بلغ الثامنة والستين تحاصره الحمّىٰ، جبينه الزاهر يتصفّد عرقاً رغم النسائم الباردة؛ لقد أزفت لحظة الرحيل، فالدّنيا برد وظلام.

القلوب المؤمنة تبكي؛ تذرف الدموع كالشموع، والفراشات تبحث عن النور في زمن الزمهرير وصرير الريح.

فتح الشيخ عينيه وقد أطلّت الروح بعد غيبوبة تريد أن توصي العالم قبل الوداع، التفت إلى ابنه موسى:

ـ يا بُني لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة.

وغابت الروح هنيئة ثم عادت من جديد:

ـ اعطوا ابن عمّي «فلاناً» سبعين ديناراً!

هتفت جارية بصوت مخنوق:

ـ أتُعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد قتلك؟!

قال الشيخ بصوت واهن فيه صدى للرحيل:

ـ أتريدون ألا أكون من الذين قال الله فيهم: «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب».

سكت قليلاً والتفت إليها:

ـ نعم يا سالمة ان الله خلق الجنّة وطيّب ريحها، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم.

وأغمض الشيخ عينيه للمرّة الأخيرة وتمتمات الدعاء تنساب من بين شفتيه كنبعٍ هادئ؛ وانبعثت في قلب الظلام أنّات مفجوعة وشهقات بكاءٍ مرير؛ وكان موسىٰ كاظماً حزنه وقد غمر قلبه نور سماوي، وتألقت عيناه بانعكاسات الضوء فوق غلالة من الدموع الصامتة، وبدا في سنيه العشرين، وهجاً من نبوّات غابرة.

هبّت ريح باردة؛ وتراكمت غيوم رمادية في السماء وادلهمّت الآفاق، وقد غمرت المدينة ظلمة موحشة.

جاء الوالي يحفّه حرّاس غلاظ، كسا وجهه القاسي حزن متصنّع، وسأل عن وصيّة الراحل.

ألقى نظرة متفحّصة لمعرفة الوصيّ فوجد شيئاً عجيباً؛ ان الوصي ليس رجلاً بعينه. لقد أوصىٰ جعفر بن محمّد إلى خمسة أوّلهم الخليفة نفسه وثانيهم الوالي من المدينة ثمّ ولديه عبد الله وموسى وزوجته حميدة!

وشعر الوالي بأنّ ثقلاً ينزاح عن صدره، لأنّ الصادق لم يوص إلى رجل بعينه.

استدعى الوالي لدى عودته إلى القصر كاتبه وأمر أن يسطر رسالة عاجلة إلى بغداد؛ جواباً علىٰ رسالة كان الخليفة قد أرسلها قبل أيّام وفيها: «إن كان جعفر بن محمّد قد أوصىٰ إلى رجل بعينه فقدّمه واضرب عنقه».

ووقف النمرود في بغداد عاجزاً، فقد تمكّن الصادق مرّة أُخرى من ترويض الوحش القابع في الأعماق؛ ومنعه من ارتكاب جريمة أُخرىٰ.

الظلام يغمر المدينة؛ ولم تشرق الشمس في اليوم التالي، فلقد حجبتها الغيوم وهي تتكاثف في الأُفق حيث تطلع الشمس، وجاء رجل مقرور يلتمس الدفء عند قبر النّبيّ، هتف وهو يبكي:

-إلى مَن أمضي؟

إلى المرجئة؟

إلى القدرية؟

إلى الزيدية؟

إلى الحرورية؟

وتمرّ الأيّام والشمس ما تزال تحجبها غيوم وغيوم...

حتّى إذا انطوىٰ شباط وتبدّدت الغـيوم؛ أشرقت شمس جـديدة وقد نهض «موسىٰ» وأخذ الكتاب بقوّة.

" ماوراء السطور "

◘ «ابن المنكدر» محمّد أحد المتصوّفة. ترك العمل والتكسّب وانصرف إلى العبادة، والحادثة مسجّلة في كتب التاريخ كالإرشاد للشيخ المفيد. رويت عن الإمام الصادق عليه السلام.

والحادثة وقعت مع الإمام الباقر عليه السلام وهو محمّد بن عليّ زين العابدين، وكنيته أبو جعفر، وأُمّه بنت الحسن بن علي. لقّب بالباقر لتبقّره في العلم، أي: توسّعه فيه، تابعي جليل القدر روى عنه ابنه جعفر الصادق والأعمش والأوزاعي وابن جريج والزهري وغيرهم، وهو خامس الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، ولد بالمدينة وتوفّي بالحميمة ودُفن بالمدينة، وعمره ٥٤ سنة أو ٥٧ سنة.

الاعلام ٧ / ١٥٣ ـ وفيات الأعيان ٤ / ١٧٤ البداية والنهاية ٩ / ٣٠٩
تذكرة الحفّاظ ١ / ١٢٤ ـ اليعقوبي ٢ / ٣٢٠

◘ توفي عامر بن واثلة سنة ١٠٠ هـ، كنيته أبو الطفيل، شاعر كنانة وأحد فرسانها؛ حمل راية علي بن أبي طالب في بعض وقائعه، كان شديد الحبّ لعليّ عليه السلام ويقدّمه علىٰ سائر الصحابة. كتب إليه معاوية يلاطفه ويدعوه؛ وقال له ذات يوم: كيف وجدك علىٰ خليلك أبي الحسن؟ فأجاب: كوجد أُمّ موسىٰ علىٰ موسىٰ، وأشكو إلى الله التقصير.

التحق بالمختار الثقفي في ثورته علىٰ بني أُميّة في العراق مطالباً بدم الحسين عليه السلام، واختفىٰ عند مصرع المختار سنة ٦٧ هـ، ثم اشترك فيما بعد في ثورة القرّاء سنة ٨٣ هـ وعاش بعد ذلك إلى أيّام عمر بن العزيز، توفّي بمكّة، ويعدّ آخر من توفّي من الصحابة، وكان قد أدرك النّبيّ صلى الله عليه وآله وروىٰ عنه تسعة أحاديث.

طبقات ابن سعد ٥ / ٤٥٧ ـ الإصابة ٤ / ٦٩٦
الاعلام ٤ / ٢٦ ـ الأغاني ١٣ / ١٥٩

▣ توفي عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ وكان قد تـولّىٰ الخلافة سنة ٩٩ هـ، اشتهر بعدله وصلاحه وزهده، أبطل سبّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على المنابر، وكانت سنّة سنّها معاوية بن أبي سفيان، أزال بعض مظالم بني أُميّة ومنها إعادته «فدك» إلى أبناء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. فكّر في أُخريات حياته بخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، فدُسَّ له السمّ وتوفّي بعد أيّام في دير سمعان من أرض معرّة النعمان.

ويعدّ عمر بن عبد العزيز استثناءً في سياسة بني أُميّة القائمة على البطش والقسوة وسفك الدماء.

الاعلام ٧ / ٣١٥ ـ ابن الأثير ٥ / ٧٠
دولة الإسلام للذهبي ١ / ٥٢

◘ تولّىٰ هشام بن عبد الملك الخلافة سنة ١٠٦ هـ وكـان مصاباً بعاهة الحول.

◘ الفرزدق بن غالب الشاعر المعروف، ارتجل قصيدة في موسم الحجّ أحدثت دويّاً في وقتها، وكان ذلك عـندما أراد هشام بن عبد الملك (قبل أن يصبح خليفة) وكان أميراً على الحاجّ أن يستلم الحجر الأسود فعجز لشدّة الزحام، فجلس علىٰ كرسي وحـوله جـنود الشـام، وراح يـراقب الجـموع الغفيرة، وفي الأثناء جاء عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام يريد استلام الحجر الأسـود، فأفسـحت له الجـموع وشـقّ طريقه إلى الحجر؛ وهنا تساءل أهل الشام عـن هـويّة هـذا الرجل قائلين مَنْ هذا؟ وكان الفرزدق الشاعر حاضراً فأنشد قصيدته جواباً لسؤالهم:

هـذا الذي تـعرف البـطحاء وطأتـه
والبـيت يـعرفه والحـلُّ والحـرم
هـذا ابـن خـير عـباد الله كـلّهم
هـذا التـقي النـقي الطـاهر العـلم

وقد زجّ الشاعر في السجن لقاء ذلك.

◘ رضوىٰ: جبل بالقرب من مكّة.

◘ زيـد بـن عـلي الثـائر الشـهيد؛ يـنتهي نسـبه إلى

علي بن أبي طالب عليه السلام، قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه
2 أفقه منه ولا أبين.

كان هشام يحقد عليه فسجنه خمسة أشهر، أعلن ثورته في الكوفة ورفع شعاره المعروف: الدعوة إلى الرضا من آل محمّد، لقي مصرعه شهيداً سنة ١٢٢ هـ، حيث صُلِبَ في «الكناسة» خارج الكوفة، وطافوا برأسه المُدن، توفي عن ٤٣ سنة؛ وفي القرن الثالث الهجري أسس أتباعه دولتهم في اليمن وثبتت أركانها رغم تعاقب القرون حتّى انتهت في الستينيات من القرن العشرين.

مروج الذهب ٣ / ٢٠٦ ـ مقاتل الطالبيين ١٢٧ ـ ابن خلدون ٣ / ٢٠٩
وفيات الأعيان ١ / ٣٣٣ ـ الطبري ٧ / ١٦٠

4 ◘ هجر : منطقة عراقية تكتظ بأشجار النخيل وهي مشهورة بمحصولها من التمور.

◘ الكناسة : محلّة خارج الكوفة صلب فيها كثير من الثوار وفي طليعتهم زيد الشهيد.

◘ في سنة ١٢١ هـ غزا مروان بن محمّد شواطئ بحر الخزر من أرمينيا حتّى طبرستان.

وفي ما وراء النهر غزا نصر بن سيّار أمير خراسان وعقد معاهدة سلام مع أمير «فرغانة».

وفي البحر المتوسط وجّه أمير أفريقيا عبيد الله بن الحبحاب حملة بحرية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري فيغزو صقلية ويصل «سرقوسة».

وفي هذا العام اشتعلت ثورة زيد بن علي.

الأعلام ٣ / ٩٨ ـ وفيات الأعيان ١ / ٣٣٣

مروج الذهب ٣ / ٢٠٦ بردكلمان ٣ / ٣٢٢

5

▣ يعود ظهور التحرّك العبّاسي إلىٰ مرحلة مبكّرة، وتقريباً إلى مطلع القرن الثاني الهجري وكان «الدعاة» يجوبون المدن في العراق وخراسان تحت غطاء التجارة، وقد أفادوا كثيراً من ثورة زيد الشهيد واستغلّوا شعاره في «الدعوة إلى الرضا من آل محمّد» في كسب الرأي العام الإسلامي.

الأخبار الطوال / ٣٣٢.

▣ أخفى الثوّار جسد الشهيد زيد وحفروا له قبراً في منطقة العبّاسية خارج الكوفة، بعد أن غيّروا مجرى نهر هناك، ثمّ أعادوا تدفّق المياه فوق القبر كإجراء احتياطي، ولكن عبداً نبطياً دلّ علىٰ قبره، فنبش الجثمان الطاهر واحتزّ رأس الشهيد وصلب جسده في الكناسة أربع سنين، أي حتّىٰ وفاة هشام بن عبد الملك، وعندما تولّى الوليد الخلافة أمر بإحراق الجثمان ونثر رماده في المياه.

ابن الأثير ٥ / ٢٢٩ / ٢٤٧

8

◘ حدث اللقاء في العراق وكان يحيىٰ بن زيد قد اختفىٰ بعد إخفاق ثورة أبيه الشهيد وتوجّه إلى خراسان، وفي الطريق يلتقي متوكّل بن هارون فيسلّمه يحيىٰ ميراث أبيه عن جدّه والمعروف بالصحيفة السجّادية.

مقدّمة الصحيفة

◘ «الحميمة» إحدىٰ مدن الشام (أرض البلقاء) وقد اتخذها إبراهيم الإمام مركزاً له، وكانت في الأصل ضيعة أقطعها عبد الملك علياً بن عبد الله بن عبّاس؛ وقد انتبه مروان الحمار متأخراً إلى نشاط العباسيين وتم إلقاء القبض علىٰ إبراهيم الإمام حيث لقي حتفه مخنوقاً في السجن.

الأخبار الطوال / ٣٥٨

9

◘ جميلة السلمية : مولاة لبني سليم، نبغت في الغناء ووضعت ألحاناً موسيقية تهافت النّاس على سماعها؛ خرجت مرّة إلى الحجّ فخرج معها جمعٌ غفير من المغنين والمغنيّات والشعراء وأشراف القوم، ولمّا وصلت مكّة استقبلها كبار المغنّين والشعراء والأشراف وجموع من الشباب؛ وكانت أحياناً تجلس للغناء مع جواريها فتُغني وتضرب على العود، وتضرب الجواري علىٰ ضربها، وكانت عيون المستمعين تهمل دموعاً.

نهاية الارب ٥ / ٤٠ ـ أعلام النساء ١ / ٢١١ ـ الأعلام ٢ / ١٣٥

◙ أبو مسلم الخراساني (عبد الرحمن) : من أهل خراسان في إيران، حمل لواء الدعوة لبني العبّاس واجتاح بجيوشه معاقل الأُمويين، كان داهية جبّاراً سفّاكاً للدماء، وكان إلى جانب ذلك فصيحاً بالعربية والفارسية، ولم ير ضاحكاً ولا مازحاً ولا خجلاً ولا قطوباً ولا عبوساً، قتل في حروبه ومؤامراته أكثر من ستمائة ألف، من العرب وغيرهم ولم يسلم منه ومن بطشه القضاة والعلماء والشعراء، وكانت نهايته علىٰ يدي المنصور سنة ١٣٧ هـ وكان عمره آنذاك ٣٧ سنة.

ابن خلكان ٣ / ١٤٥ ـ الطبري ٧ / ١٩٨ ـ مروج الذهب ٣ / ٢٩٠
تاريخ بغداد ١٠ / ٢٠٧ ـ ابن النديم / ٤٨٣
اثبات الوصية / مادة جعفر الصادق ص١٨٦.

◙ يحيىٰ بن زيد الشهيد : أُمّه ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية أحد الأبطال الشهداء، فرّ إلى خراسان بعد مصرع أبيه سنة ١٢٢ وأشعل الثورة فيها سنة ١٢٥، خاض معارك ضارية ضد الأُمويين إلىٰ أن سقط شهيداً في قرية في «الجوزجان» حيث ظل مرفوعاً على الصليب سبعة أعوام أي حتى ثورة أبي مسلم الخراساني؛ وكان عمره حين استشهد ٢٢ سنة.

الأعلام ٩ / ١٧٩ ـ مقاتل الطالبيين / ١٥٢ ـ مروج الذهب ٢ / ٢٢٥

▣ محمّد النفس الزكية ابن عبد الله بن الحسن (المثنّى) بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، لقّب بالمهدي وبالنفس الزكيّة، ولد ونشأ بالمدينة، ولما بدأ الانحلال في دولة بني أُميّة اتّفق رجال من بني هاشم علىٰ بيعته سرّاً وفيهم المنصور وأخوه أبو العبّاس السفاح.

وعندما ظهرت دولة بني العبّاس توارى محمّد وأخوه
إبراهيم عن الأنظار وشدّد المنصور في إلقاء القبض عليه،
فساق أباهما عبد الله الملقّب بالمحض وبعض أقاربهما
وعذّبهم حتّى ماتوا في سجن الكوفة بعد سبع سنين، وإثر
ذلك ثار محمّد في المدينة وأخوه إبراهيم في البصرة،
ونجحت ثورة إبراهيم وتمكّن من الاستيلاء على مناطق
عديدة من بينها البصرة والأهواز وفارس، وزحف باتجاه 10
الكوفة وكاد أن يعصف بحكم بني العبّاس ولكن سرعان ما
دارت عليه الدوائر فسقط شهيداً في قرية باخمرىٰ قريباً من
الكوفة.

البداية والنهاية ١٠ / ٨٦ مروج الذهب ٣ / ٢٩٤
مقاتل الطالبيين / ٣١٥ ـ ابن خلدون ٣ / ١٩٠

▣ ابن البربرية: أبو جعفر المنصور، عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب. أُمّه بربرية تدعىٰ سلامة وكانت أُمّ ولد، بويع بالخلافة بعهد من أخيه الأصغر

السفّاح. وقد تولّى السفّاح الخلافة قبل أخيه لأن أُمّه عربية؛ ويعتبر مؤسس دولة بني العبّاس. وهو أوّل من عهد إلى مواليه بالمسؤوليات وقدّمهم على العرب، وأوّل من دقّ أسفين الفرقة بين أبناء عليّ بن أبي طالب وأولاد العبّاس، وكان أمرهم قبل ذلك واحداً. استعان بأبي مسلم الخراساني في قمع ثورة عمّه عبد الله بن علي، فلمّا قضىٰ عليها قتل أبا مسلم واستعان بعيسىٰ بن موسىٰ وكان ولي عهده في القضاء علىٰ ثورتي محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن. فلمّا تمّ له ذلك خلعه من ولاية العهد وأرغمه على التنازل عنها لابنه محمّد الذي لقّبه بالمهدي ولم يعهد بالخلافة إلى ابنه جعفر وهو أكبر أبنائه لأنّه كان مصاباً بالصرع.

ولد المنصور سنة ٩٥ هـ وتوفي سنة ١٥٨ هـ.

اليعقوبي ٢ / ٣٦٤ ـ مروج الذهب ٣ / ٣٠٧
البداية والنهاية ١٠ / ٦١

▣ حدث اللقاء سنة ١٢٦ أو ١٢٧ هـ وذلك بعد خلع الخليفة الأُموي الوليد بن يزيد وقتله، فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الدعوة العبّاسية ترجع إلىٰ عهد مبكر، يكون الإمام الصادق عليه‌السلام قد أدرك قبل غيره نوايا بني العبّاس من وراء بيعتهم محمّد ذو النفس الزكيّة في تلك الفترة من الزمن.

11

◘ الوليد بن يزيد بن عبد الملك: أُمّه بنت محمّد بن يوسف الثقفي، أخ الحجّاج الجلّاد المعروف، انهمك في اللهو والغناء وكان يضرب بالعود ويوقّع بالطبل ويمشي بالدف علىٰ طريقة أهل الحجاز. قتل في قصر النعمان بن بشير وكان قد لجأ إليه وكان عمره يومئذ ٣٨ سنة.

الاعلام ٩ / ٢٤٨ الطبري / حوادث سنة ١٢٦ هـ.
مروج الذهب ٣ / ٣٣٥ ـ ابن خلدون ٣ / ٢٢٧

◘ «زنوبيا» : ملكة تدمر القديمة، خاضت حروباً مدمّرة ضد الرومان، انتهت باحتلال تدمر وأسرها.

◘ «الناقص» : يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان لقّب بالناقص لأن سلفه كان قد زاد في رواتب الجيش زيادة أعجزت بيت المال، فلمّا تولّى يزيد الخلافة إثر قتل سلفه ألغىٰ تلك الزيادة. توفي سنة ١٢٦ بالطاعون بعد حكم دام خمسة أشهر.

مروج الذهب ٣ / ٣٣٥ ـ ابن خلدون ٣ / ٢٢٧

◘ «الحمار» : مروان بن محمّد بن الحكم، لقّب بالحمار لصبره علىٰ مكاره الحروب، آخر ملوك بني أُميّة، دعا الناس إلى خلافته وهو في أرمينيا سنة ١٢٦ وزحف بجيشه إلى

دمشق ودخلها فاتحاً وأستولىٰ على العرش سنة ١٢٧ وفي عهده ظهرت علائم الانحلال في الدولة الأُموية رغم سعيه في الحؤول دون سقوطها، لقي مصرعه في قرية بوصير في مصر، وبموته انتهت دولة بني أُميّة.

ابن الأثير ٥ / ١١٩ ـ البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٢

ابن خلدون ٣ / ١٩٦

▣ إبراهيم الإمام ابن محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس زعيم الدعوة العبّاسية في مرحلتها السرّية، سكن «الحميمة»، وفي عهده نشط دعاة بني العبّاس في دعوتهم، وهو الذي عيّن أبا مسلم زعيماً للدعوة في خراسان. أُلقي القبض عليه وتمّت تصفيته في السجن وكان عمره ٤٩ سنة.

مروج الذهب ٣ / ٢٤٣ ـ الطبري ٧ / ٢٩٤

▣ أبو سلمة الخلّال : حفص بن سليمان الهمداني، لُقِّب بالخلّال لسكناه في درب الخلّالين بالكوفة، كان في مقدّمة الدعاة لبني العبّاس، وكان حلقة الوصل بين خراسان والحميمة، ولمّا دخلت جيوش أبي مسلم الخراساني الكوفة سلّم الرئاسة لأبي سلمة ودُعي وزير آل محمّد، وهو الذي أعلن بدء الخلافة الهاشمية دون تسمية الخليفة، وكان يفكّر بإسنادها إلى العلويين، فراسل كلّاً من

الإمــام جعفر الصــادق عليه السلام وعـبدالله بـن الحســن المـثنى (المحض)، وعمر الأشرف بن عليّ زين العـابدين، وعـندما انكشف أمره اعتذر إلى أبـي العـبّاس السـفّاح الذي دخـل الكوفة وبويع بالخلافة، فتظاهر بقبول اعتذاره غير أنّه أوعز إلى أبي مسلم بتصفيته، فأرسل الأخير إليه من كـمِنَ له فـي قلب الظلام فقُتل في طريق عودته إلى منزله.

وفيّات الأعيان ٢ / ١٩٥ ـ البداية والنهاية ١٠ / ٥٥

مروج الذهب ٣ / ٢٧٠

▣ تردّدت الإشارة إلى سورة القدر، وهي تعبير عن الآية الكريمة في السورة المباركة: ﴿ليـلة القـدر خـيرٌ مـن ألف شهر...﴾ وهي المدّة التي حكمها الأُمـويون، ويـذكر بـعض المفسّرين أنّها نزلت في رؤيا رآها النّبيّ صلى الله عليه وآله؛ إذ رأى قردة تنزّ على منبره فاغتم لذلك.

▣ عندما اسـتولىٰ مـروان الحـمار عـلى الخـلافة نـقل عاصمته إلى حرّان.

14

▣ لم يتوفَر التاريخ علىٰ وثيقة تؤيّد هذه الرؤيا، ولكـن حياة المنصور في الحقبة التي تسـلّم فـيها مـقاليد الحكـم تكشف عن جانب «الطاغية» فـي أعـماقه وعـن اسـتغراق

لا حدّ له في تقديس المال والثراء.

وقف يوماً في عرفة قائلاً: «أيُّها النّاس إنّما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده؛ وحارسه علىٰ ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأُعطيه بإذنه فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني».

لقد كان المنصور في غاية البخل؛ وعندما استمع الناس إلى هذه الخطبة تهامسوا فيما بينهم: أحال أمير المؤمنين بالمنع على ربّه!

وتكشف دمويته هذه الكلمات عندما أمسك بسيفه وقال: أيُّها النّاس ان بكم داء هذا دواؤه (وهزّ سيفه) وأنا زعيم لكم بشفائه فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به.

تاريخ الخلفاء ٣٦٤ ـ العقد الفريد ٤ / ١٨٥

15 ◘ رابعة العدوية : رابعة بنت إسماعيل من أهل البصرة.. أمّ الخير، امرأة صالحة لها شعر صوفي يعبّر عن الحبّ الإلهي، توفيت في القدس ولها من العمر أربعون سنة.

أعلام النساء ١ / ٤٣٠ ـ البداية والنهاية ١٠ / ١٨٦

▣ لقي أبو مسلم الخراساني مصرعه علىٰ يـد المـنصور سنة ١٣٧ هـ. وفي تلك الفترة وضع ابن المقفع كتابه المشهور (كليلة و دمنة)، وقد أثار ذلك المنصور فحقد عليه وعدّ ذلك عملاً تحريضياً ضدّه، وقد أوعز الأخير إلى واليه على البصرة سفيان بن معاوية بقتله وكان سفيان يحقد هو الآخر على ابن المقفع. فراح يتفنّن في تعذيبه حتّى أنّه كان يـقطّع أوصـاله ويلقيها في النار أمام عينيه إلى أن مات.

الفهرست / ١١٨ ـ البداية والنهاية ١٠ / ٩٦ ـ كليلة ودمنة / المقدّمة

▣ شتربه : إحدىٰ شخصيات كتاب كليلة ودمنة.

▣ «الرومية» : مدينة بالقرب مـن «المـدائـن» عـاصمة الامبراطورية الفارسية، كان كسـرىٰ أنـوشيروان قـد بـناها لتكون معسكراً لأسراه من الرومان.

▣ المعلّىٰ بن خنيس : من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، لقي مصرعه في نوبة من نوبات البطش التي اجتاحت المدينة وصودرت أمواله، وكان اتّهامه الوحيد انّه لم يدلّ على ابني عبد الله محمّد النفس الزكية وإبراهيم. قـتله داود بـن عـلي حاكم لمدينة المنورة.

الطبري ٩ / ١٤٧ ـ الاعلام ٣ / ٨

19 ◘ حج المنصور في خلافته مرّتين؛ الأُولىٰ سنة ١٤٠هـ والثانية في سنة ١٤٤هـ، وحج في سنة ١٥٨ غير انّه مات قبل أن يصل مكّة في مكان يدعى «الأبطح» علىٰ بئر ميمون وذلك يوم السبت السادس من ذي الحجّة سنة ١٥٨ هـ.

الأخبار الطوال / ٣٨٥

◘ محمّد بن زيد الشهيد : أصغر أبناء زيد، كنيته أبو جعفر، أُمّه أُمّ ولد من بلاد السند، كان في غاية الفضل ونهاية النبل، تزعّم ابنه محمّد بن محمّد بن زيد ثورة أبي السرايا في عهد المأمون العبّاسي ووقع أسيراً، تعجّب المأمون من صغر سنّه، توفي في مرو مسموماً علىٰ يد الأخير ولما يبلغ العشرين بعد.

عمدة الطالب / ٢٧٥ ط انصاريان.

20 ◘ «مكاءً وتصدية» : اصطلاح قرآني؛ عاب فيه القرآن علىٰ العرب حجّهم في العهد الجاهلي، إذ كانوا يصفرون ويصفّقون في طوافهم حول الكعبة.

21

◘ ذكّر عبد الله بن الحسن المثنى (المحض) المنصورَ بمعركة «بدر» عندما وقع العبّاس بن عبد المطّلب أسيراً في قبضة الجيش الإسلامي وقد أمر النّبي ﷺ بفك قيوده ومعاملته معاملة حسنة.

◘ منف (منفيس) : عاصمة الفراعنة في مصر، و(منفتاح) الفرعون الذي طارد سيّدنا موسىٰ عليه السلام، عُثِرَ علىٰ جثته سليمة (مومياء) في مقبرة عادية علىٰ سواحل البحر الأحمر، وهو الآن في متحف القاهرة.

22

◘ بدأ العمل ببناء بغداد سنة ١٤٥ هـ وانتقل إليها المنصور سنة ١٤٦ هـ قبل الانتهاء من بنائها، بنيت بشكل دائري، بلغ محيطها ١٠٨٠٨ إلى ١٣٠٠٠ م، اشترك في البناء ١٠٠٠٠٠ عامل، وانتهى البناء فيها سنة ١٤٩ هـ، وهي تقع بين مقابر قريش (الكاظمية) شمالاً، وبراثا والكرخ من الجنوب الغربي ودجلة من الشرق، ونهر الفرات من الجنوب.

الفخري لابن الطقطقي / ١٦١

23 ▣ كان أبو حنيفة قد رفض تعيينه قاضياً على المدينة، ولكن المنصور جعله يقبل بعمله في بناء بغداد، فتولّى القيام بضرب اللبن وعدّه.

تاريخ بغداد ١ / ٧١ ـ الطبري ٧ / ٦١٩

▣ «المطبق» : سجن بغداد الرهيب، بدأ العمل به مع بدء العمل في بناء بغداد، وكان من معالمها الأساسية، يقع في القسم الجنوبي من بغداد.

تاريخ بغداد ١ / ٧٧

24 ▣ حدث الاعتقال بعد إخفاق ثورتي محمّد النفس الزكية وشقيقه إبراهيم؛ وكان المنصور على وشك أن يرتكب مذبحة كبرى، ولكن الإمام الصادق قد وفق في محاورته بأسلوب هادئ أنقذ فيه عشرات العلويين من الذبح.

الامام جعفر الصادق / المستشار عبد الحليم الجندي

26 ▣ كان المنصور يحتفظ بجماجم قتلاه من أبناء عليّ عليه السلام في خزانة خاصّة، ولم يطلع عليها أحد، وعندما عزم على الحجّ في سنة ١٥٨ استدعى ريطة زوجة ابنه وولي عهده

محمّد المهدي وسلّمها مفتاح الخزانة وشدّد على عدم فتحها إلّا بعد عودة زوجها ليفتحاها معاً، وقد ذعر الخليفة المهدي لدى رؤيته منظر الجماجم وكان فيها جماجم لأطفال صغار.

الطبري /ج ٧

27

◘ المفضل بن عمر: من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أملىٰ عليه الإمام الصادق علوماً في الطبيعة وعجائب الخلق وهو الكتاب المعروف بتوحيد المفضل.

◘ عبد الكريم بن أبي العوجاء: خال معن بن زائدة الشيباني؛ من زنادقة العصر العباسي وملحديهم، أُعدم سنة ١٦١ هـ، صادفه الإمام الصادق في موسم الحجّ فسأله:

ـ ما جاء بك؟

ـ عادة الجسد وسنّة البلد ولنبصر ما النّاس فيه من الجنون والحلق (حلق الرؤوس) ورمي الحجارة (الجمرات).

فقال الإمام عليه السلام: أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم؟

وعندما أراد ابن أبي العوجاء أن يفتح موضوعاً للجدل، قال الإمام وهو ينفض رداءه:

ـ لا جدال في الحجّ.

ثمّ أردف حاسماً:

ـ ان يكن الأمر كما تقول : (نظريته في عبثية الخلق) وليس كما نقول (المعاد والآخرة والحساب) نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وليس كما تقول نجونا وهلكت.

فسكت عبد الكريم وهو يشعر بالهزيمة.

الإمام الصادق / المستشار عبد الحليم الجندي

28 ◙ أقدم المنصور سنة ١٤٧ هـ. علىٰ خلع اَبن أخيه عيسىٰ بن موسىٰ من ولاية العهد وعقدها لابنه محمّد ولقّبه بالمهدي، وفي هذه السنة اجتاح الخزر الأراضي الإسلامية في أرمينيا ودخلوا مدينة تفليس وقاموا بسبي المسلمين فيها.

الطبري ٧ / ٤٧٤ ـ تاريخ بغداد ١٠ / ٨

29 ◙ حاول المنصور تصفية الإمام الصادق أكثر من مرّة، وقد سجّلت كتب التاريخ لقاءات متشنجة بين الرجلين، وكانت محاولاته مباشرة وغير مباشرة، منها إضرام حاكم المدينة المنورة النار في منزله عليه السلام، ومن المرجّح أن يكون المنصور قد دس إليه السمّ ليتخلّص منه، خاصّة وقد تصاعدت نغمة التهديدات التي كان المنصور يطلقها حياله، وكان الإمام عليه السلام يقول له: لا تعجل! لقد بلغت الرابعة والستين

وفيها مات أبي وجدّي.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار رسالة المنصور إلى والي المدينة والتي تتضمّن تصيفة وصيّ الإمام أدركنا هواجس المنصور جرّاء وجود الصادق عليه السلام علىٰ قيد الحياة.

وهناك إشارات تاريخية تصرّح بتصفية الإمام الصادق عليه السلام بالسمّ.

بحار الأنوار ج ٤٧ ص ١٨٢

▣ توفي الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في شوال سنة ١٤٨ هـ شتاء سنة ٧٦٥ م.

▣ كان الصادق عليه السلام ربع القامة (بين الطول والقصر) أزهر الوجه، حالك الشعر (الشديد السواد) جعد، أشمّ الأنف (ارتفاع قصبة الأنف وحسنها وانتصاب الأرنبة؛ أنزع رقيق البشرة دقيق المسرُبة (الشعر وسط الصدر) علىٰ خدّه خال أسود وكان اسمه جعفر؛ مكتوب في خاتمه «الله خالق كلّ شيء».

بحار الأنوار ٤٧ / ٩ ـ ١٠.

(A. H)